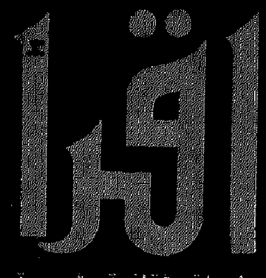




سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دار المعارف



سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٢٣]

تصميم الغلاف : **محمد أبو طالب**

دكتورة نوال السعداوى

المرأة والغربة



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشـاء هـذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربيـة . وأن ينتفعوا ، وأن تـدعـوهـم هذه القـراءة إلى الاستزادة من الثقـافة ، والطموح إلى حياة عقليـة أرقى وأخصب من الحياة العقليـة التى نحيـاهـا .

طـه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

« نوال السعداوى .. تحرضنا على التساؤل » .

ما أكثر « الكتابات » الخالية من فعل « الكتابة »

كتابات ممتلئة بالكلمات ، وتعوزها « الكلمة » كتابات مكدسة بالأفكار ، وتفتقد « الفكر » .

وفى هذا الكتاب تواجهنا « كتابة » ذات مذاق مختلف .

نوال السعداوى ، كاتبة ، وأديبة ، تؤمن أن « الكتابة » ، فعل ثورى ، لا يعبر قدر ما يقتحم المحظور ، ويخلق المحال . و « الكلمة » نغمة « نشاز » عن أغنية الواقع القانعة بالرتابة ، وتصفيق الناس ، وكلاهما ثمرة « فكر » متجاوز ، طامح أبدًا إلى أفق الدهشة ، والخطر ، قناعتها أن الإبداع ، هو ما يثير زوابع الغضب ، وسوء الفهم .

هذه موضوعات ، لا تعطينا إجابات جاهزة الصنع ، يمكن استهلاكها كالأشياء ، إنها شحنات تَحَدٍّ ، تستفز عقولنا ، تحرك بحيرات التساؤل الراكدة ، تحرضنا على إعادة النظر ، فيما اعتبرناه من البديهيات والمسلمات .

تكتب نوال السعداوى ، عن أزمة الهوية ، وتخوض معركة العقل ضد التيارات اللاعقلية ، وتوضح قهر المرأة الجسدى ، والنفسى المتستر وراء الفضيلة ، وترفض النمط المستورد السطحى للثقافة ، والفكر . فى كل المواقع ، وهى لا تسرد ، ولا تصف ، بل يضرب قلمها فى جذور المشكلة ، يعرى الجرح دون تردد ، أو هوادة . كامرأة اشتغلت بالطب ، والجراحة تدرك خطورة الحقن بالمسكنات ، وضرورة استئصال الداء من العمق .

ولأنها تواجهنا بما لم نألفه ، أو نتوقعه ، أو يريحنا ، فإن هذه الموضوعات تصدمنا ، تربكنا ، وتجبرنا على هجر موقف الحياد واللامبالاة ، والنزول إلى ساحة التفاعل الفكرى .

إنه هذا التفاعل الذى يمنح نوال السعداوى ، إحدى ميزاتها ، قد نتفق ، أو نختلف معها ، لكن يبقى إنجازها المتفرد ، إنها تثير الجدل ، والشك ، تستنفرنا لمواجهة أنفسنا من الداخل ، دون أقنعة .

لا تطمح نوال السعداوى – كعادتها – إلى حلول ، أو تصحيح ، أو شن حملات . هى تريد أن تخلق منهجًا جديدًا فى التفكير ، وأن تشكل رؤى مغايرة ، لتذوق الحياة ، وتغيير العالم ، وهذا يبرر تنوع القضايا التى يتضمنها هذا الكتاب ، لكنها جميعا ، تنويعات على لحن أساسى ، يغنى للحرية ، والعدل بين البشر .

يدهشنا الحماس ، والتوهج ، والطزاجة ، المطلة من بين السطور ، والسبب لا يرجع إلى أنه كتاب يمس قضايا شائكة ،لها حساسيتها ، فى واقعنا العربى ، ولكن لأن نوال السعداوى ، كاتبة ، تعيش ما تكتبه ، وتكتب ما تعيشه .

إن التحام الفكر بالحياة المعاشة ، هو ما يعطى كتابات نوال السعداوى ، نكهتها الفريدة ، المفعمة بحرارة العقل والقلب ، والجسد ، دونما انفصال .

هى « متورطة » فيما تكتبه تورطًا حياتيًا ،عضويا .

ولذلك حين تدافع عن آرائها ، لا تحمى « فكرها » وإنما كل حياتها . فى وحدة غير قابلة للتجزئة .

وهذا هو شرط أن تؤثر الكتابة فى القراء ، وأن يكون لها صدى فى المستقبل . فالكتابة التى عجزت عن تغيير كاتبها ، والتأثير فى حياته ، تعجز عن تغيير الآخرين ، والتأثير فى حياتهم .

الأفكار عند نوال السعداوى ، حيوات تعاش .

الفكرة كائن حى صعب المراس ، لا يمنح أسراره الثرية ، إلا بعناق دائم ، متجدد .

نوال السعداوى ، كامرأة ، كإنسانة ، وكأديبة مبدعة ، رفضت

القهر على المستوى الشخصى ، والعام ، وما تاريخها إلا صراع لا يهدأ ، ضد القيود فى جميع أشكالها .

لكنها تقول دوما كلمتها ، وتكتب ، لأنها تؤمن أنه من الصعب أن يتحرر الإنسان ، فى عالم لا تزدهر فيه من حوله حريات الآخرين ..

منى حلمى

عن أزمة الهوية

الهوية ليست شيئا ثابتا

يتكلم الناس اليوم عن الهوية ، أو الشخصية الأصيلة ، بمثل ما كانوا يتكلمون منذ سنين عن الطبيعة الأنثوية ، والطبيعة الذكرية ، وبمثل ما كانوا يتكلمون فى عهد اليونان القديم عن العقل الثابت ، أو « اللوجوس » وقد اتضح فى ضوء الفلسفات الجديدة أنه ليس هناك ما يسمى « باللوجوس » أو العقل الثابت ، وليس هناك أيضا ما يمكن أن يسمى بالطبيعة البشرية الثابتة التى لا تتغير للرجل أو المرأة .

لقد وجد أن الطبائع البشرية ظواهر نسبية متغيرة على الدوام مع تغير المجتمع ، والبيئة والثقافة ، وظروف الحياة .

إن طبيعة الرجل البدائى فى العصر الحجرى مثلا تختلف تمامًا عن طبيعة الرجل اليوم .

وينطبق هذا القول أيضًا على ما يسمى بالهوية أو الشخصية .

إن هوية الرجل العربى المسلم ، فى العصر الأموى مثلا ليست هى هوية الرجل العربى المسلم اليوم ، إن الشخصية الإنسانية فى تفاعل مستمر مع القيم الثقافية والاجتماعية السائدة ، وهى تتغير من مجتمع

إلى مجتمع ، ومن زمن إلى زمن ، ولا يمكن أن نقول : إن الجلباب هو الزى العربى أو الزى الإسلامى مثلا ، لأن الرجال كانوا يرتدون الجلاليب فى الجزيرة العربية منذ ألف عام !

ولا أن نقول : إن الحجاب بالنسبة للمرأة هو جزء من شخصيتها الأصلية أو هويتها لمجرد أن النساء العربيات فى زمن ما ،أو فى عهد ما ارتدين الحجاب .

إن عقل الإنسان العربى (رجلا وامرأة) يتطور مع الزمن ، وتتغير ويتغير معه الزى الذى يلبسه بالضرورة ليتفق مع حركته الجديدة فى المجتمع ، ومع دوره المتغير دائما .

وعلى ذلك فإن الذى يحدد الهوية ليس هو « الزى » أو الشكل الخارجى للإنسان ، وإنما « دوره » فى حياته ، وعمله ، وأفكاره ، وتفاعله مع قضايا مجتمعه ، وتاريخه ، واشتراكه مع الآخرين لحل مشاكل بلده ، وتحقيق العدالة والحرية لنفسه وللآخرين .

لكن موضوع « الهوية » فى بلادنا ينسى دائمًا « الجوهر » ويتحدث عن « الشكل » يتجاهل « الأصول » ويتمسك بالفروع ، مثل ارتداء الجلباب أو السروال . تربية الذقون ، تغطية وجه المرأة .

لكنى أرى أن الجلباب أو النقاب ليس هو الهوية العربية الأصيلة ، إن الذى يرتدى جلبابا ،ثم يجهل تاريخ بلده أو تاريخ الفلاسفة العرب

مثلا لا تكون له هوية عربية أصيلة ، والمرأة التى ترتدى نقابًا ثم تجهل تاريخ نشوء الإسلام وحياة النساء العربيات قبل الإسلام وبعده لا تكون لها هوية عربية أصيلة .

الفراعنة واليونان

يقول الدكتور مراد وهبة إن « الوهم » هو لب الحضارة الفرعونية على عكس الحضارة اليونانية التى محورها « العقل » ، ويضرب على ذلك مثلاً بزيارة العالم فيثاغورس لمصر أيام الفراعنة . لكى يتعلم الهندسة ، لكنه اكتشف أن المصريين عمليا يعرفون الهندسة لكن دون براهين ، بمعنى أنهم يعرفون مثلا أن المربع المنشأ على الوتر يساوى مجموع المربعين المنشأين الآخرين ، لكن ليس لديهم برهان على ذلك ، أما عبقرية فيثاغورس فقد كانت فى استخدامه العقل للعثور على البرهان . واستكمالا لنفس الرؤية يعتقد د . مراد وهبة أن « الأهرام » ليست إلا رمزًا للوهم . لأن الهدف من بنائها لم يكن ترقية الحياة الإنسانية بل إنها رمز لسخرة المجموع من أجل فرد .

ويعتقد د . مراد وهبة أن أولى خطوات الرؤية العقلية السليمة هى أن نواجه أنفسنا بحقيقة الأوهام ، التى نعيشها حتى لو كانت الأهرام .

لكنى أرى أن أحد الأوهام التى يعيشها أغلب المفكرين فى بلادنا هو الوهم القائل بأن الحضارة اليونانية قامت على « العقل » ، وأن

الحضارة المصرية قامت على « الوهم » ، أو اللاعقل أو النفس أو « الروح » حسب تعبير توفيق الحكيم .

من الخطأ أن نقارن بين علم الهندسة عند الفراعنة ، وعلم الهندسة فى اليونان القديم ، والفرق بين العصرين يزيد عن الألف عام .

إن علم الهندسة عند الفراعنة قام على « العقل » تماما مثل علم الهندسة عند اليونان القديمة ، بل إن علماء اليونان نقلوا عن مصر ، وكان يحجون إليها من أجل نقل العلم والمعرفة .

والمشكلة ليست جغرافية : مصر أو اليونان : الشرق أو الغرب ولكن المشكلة هى نشوء العبودية فى مصر واليونان وانهيار الحضارة الأولى قبل الفراعنة وقبل أن ينقسم المجتمع إلى عبيد وأسياد ورجل مسيطر وامرأة خاضعة .

لقد سخر الفراعنة فقراء المصريين لبناء الأهرامات قبورا لهم ، وفى اليونان سُخر العبيد فى الأرض قُتلوا بالآلاف حتى قامت ثورة العبيد .إن أرسطو الفيلسوف الأكبر فى اليونان والذى قامت فلسفته على العقل قد أعلن أن العبودية أمر عادل تتطلبه طبيعة العبد وطبيعة المرأة ، وقسم الموجودات فى الحياة إلى قسمين :

١ - الأشخاص : وهم الرجال الملاك الأسياد .

٢ - الأشياء : وهم العبيد والنساء والحيوانات .

هل يمكن لمن يقرأ أرسطو الآن أن يقول : إن مثل هذا الكلام منطقى أو قائم على العقل ؟

ربما لم يكن « الوعى » الاجتماعى عند أرسطو واضحًا كما هو عندنا اليوم ، ولذلك نحن لا نحكم على أرسطو بالوهم أو اللاعقل . إن حماسه للعبودية لم يقل عن حماس الفراعنة . لكن الأزمنة اختلفت . وقد قامت حضارة مصر القديمة على العقل بمثل ما قامت الحضارة اليونانية على العقل ، وكلاهما قاما على العقل الناقص الذى يظن أن العبودية أمر طبيعى .

الهوية الاستهلاكية

الثقافة والاقتصاد

تابعت (من على بعد) الحوار الدائر فى بلادنا حول الهوية ، والخلاف بين المفكرين ، بعضهم يرى أن هويتنا إسلامية ، والبعض الآخر يراها مصرية قومية تاريخية تشمل الحضارة المصرية القديمة وما تلاها من حضارات قبطية وعربية وإسلامية وشرقية وغربية .

ويدور هذا الحوار نفسه تقريبا فى عدد من البلاد العربية ، وفى بلاد أوروبا وآسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية ، بل فى شمال أمريكا أيضا ، حيث تشعر الأغلبية الساحقة من البشر فى أنحاء كثيرة من العالم أنهم مهددون بفقدان الهوية الذاتية ، وثقافتهم المستقلة إلى جانب فقدان مواردهم الاقتصادية والمادية .

وقد حضرت فى السنين الأخيرة عددا من المؤتمرات الدولية والعربية حول هذا الموضوع ، واتضح أن عملية النهب الاقتصادى المنظم المتزايد تحت ما يسمى « النظام العالمى الجديد » ، يصاحبها فى الوقت ذاته عملية نهب معنوى وأدبى وثقافى ، يشمل الهوية الشخصية للإنسان الفرد بمثل ما يشمل الهوية الجماعية للشعب الواحد .

إن أى نظام اقتصادى قائم على الربح السريع وتراكم المال فى يد الأقلية لا يمكن أن يستمر دون أن يحمى نفسه بقوة السلاح والإعلام أو التوجيه الثقافى ، ومن هنا ارتباط الثقافة أو الهوية بما يحدث فى مجال الحرب والسوق التجارية .

فى مؤتمر فى لندن (عام ١٩٩٣) وقف أستاذ فلسطينى أمريكى وتساءل : « هل « الهوية » نوع من الوهم فى هذا العصر الأخير (عصر ما بعد الحداثة) أم أنها حقيقة ؟ » ، ونهض أستاذ مغربى وتساءل : « هل يكون للمثقفين وجود أو دور فى هذا العصر ما بعد الحداثة ؟ » ، وتكلم أستاذ سويسرى قائلا : « إن دور المثقفين أوشك على الانتهاء فى مواجهة القوة الدولية النووية والإعلامية المركزة فى قطب واحد ، هو القطب الأمريكى » .

لا شك أن الدور الذى يلعبه الإنسان فى حياته يرتبط بهويته . ومن هنا الإحساس بالقلق على فقدان « الهوية الذاتية » ، فى مواجهة الهوية الأمريكية المدعمة بالسلاح الحربى ، وتكنولوجيا الإعلام أو التوجيه الثقافى .

هذا الأخطبوط الأمريكى يسعى إلى تدويل كل شىء من سوق السلاح إلى سوق الفيلم السينمائى ، والمسلسل التلفزيونى ، وعقاقير منع الحمل . إن عملية التدويل هذه (gobalization) هى التى أصبحت تهدد البلاد الأخرى (بما فيها أوروبا) ، لا من أجل القضاء على

إنتاجها الاقتصادى فحسب. ولكن أيضا القضاء على إنتاجها الثقافى وهويتها المستقلة .

ربما تتجسد عملية التدويل هذه فى الاتفاقية المعروفة باسم « الجات » ، والتى تحاول بها الولايات المتحدة السيطرة على قارات العالم جميعا (بما فيها أوروبا) اقتصاديا وثقافيا فى آن واحد .

وقد بدأت ردود الفعل ضد هذه السيطرة من المثقفين فى أوروبا – خاصة فرنسا – وبلاد أخرى فى العالم العربى خاصة مصر ، يرجع ذلك إلى أن فرنسا من البلاد التى تعتز بثقافتها الخاصة المختلفة عن الثقافة الأمريكية ولغتها الفرنسية المختلفة عن اللغة الإنجليزية ، بل الأكثر جمالا أو رقيا ، وقد التقيت برئيس فرنسا (ميتران) أكثر من مرة فى بعض المؤتمرات الثقافية التى عقدت فى باريس فى الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة ، ولاحظت أنه لا يتكلم إلا اللغة الفرنسية مع أى شخص ، وإن كان هو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . كذلك أيضا زوجته (دانيال ميتران) التى اختلف معها سياسيا فى كثير من القضايا إلا أننى أعجب بهذا الاعتزاز والتمسك باللغة الفرنسية .

وكم أشعر بالسرور حين أحضر المؤتمرات فى تونس أو الجزائر أو المغرب ، وأدرك أن لغة الحوار أصبحت اللغة العربية بعد أن كانت الفرنسية .

اللغـــة

لا شك أن اللغة جزء أساسى من مكونات الهوية الفردية والجماعية على حد سواء ، أحيانا حين يسألنى سائل ما هو وطنك ؟ فأقول وطنى هو اللغة العربية .

فى مصر أيضا (مثل فرنسا) لاحظت أن المثقفين (رجالا ونساء) يلعبون دورا هاما فى الحياة السياسية والثقافية ، وهم رغم اختلافاتهم السياسية والعقائدية يملكون هذا الاعتزار بلغتهم العربية ، وحضارتهم المصرية القديمة ، عبر التاريخ منذ إيزيس وأوزوريس حتى الحضارة القبطية والحضارة الإسلامية .

منذ سقوط الاتحاد السوفياتى (بل قبل ذلك بعدة سنوات) بدأ المثقفون الاشتراكيون والمثقفات من النساء (فى الغرب والشرق ، وفى بلادنا العربية أيضا) يملكون شجاعة نقد الأفكار الاشتراكية أو الماركسية التقليدية ، ومنها ذلك الفصل بين ما سمى « البناء التحتى » و « البناء الفوقى » فى المجتمع ، أى الفصل بين الاقتصاد والثقافة ، والفصل بين قضية العمال والفلاحين (القضية الطبقية) ، وبين قضية المرأة ، أو نصف المجتمع الآخر (القضية الأبوية) .

وقد استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تستفيد من هذه الأفكار الجديدة ، وأن تطوعها لخدمة أرباحها الاقتصادية ، مثلا فى اتفاقية « الجات » ليس هناك فصل بين السوق الاقتصادية والسوق

الثقافية . وفى هذه الاتفاقية تسعى الولايات المتحدة لفتح الأسواق لمنتجاتها من السلاح ، إلى رغيف الخبز ، إلى الفيلم السينمائى أو التلفزيونى ، إلى عقاقير منع الحمل .

التدمير الثقافى والاقتصادى

فى أحد الاجتماعات فى جامعة ديوك (١٩٩٣) أكد أحد الأساتذة الأمريكيين أن صادرات الولايات المتحدة من الأفلام والمسلسلات التلفزيونية تحقق لها أرباحا طائلة ، لا تقل عن أرباحها من صادرات الأسلحة والمنتجات الزراعية والصناعية الأخرى ، ولهذا السبب تسعى الولايات المتحدة إلى ما يسمى « الخصخصة » أو كسر حماية الدول للإنتاج المحلى سواء كان اقتصاديا أو ثقافيا ، تحت شعار حرية السوق وحرية الثقافة أو حرية سفر المعلومات والأخبار والإعلانات والمسلسلات ، عبر تكنولوجيا الإعلام والاتصال .

إنها الحرية التى تجعل الأقوى يتحكم فى الأضعف ، ولهذا أدركت البلاد الأوربية الخطورة ، وبدأت فرنسا (على الأخص) تستعين بالدولة لحماية إنتاجها الثقافى خاصة الأفلام التى يخرجها الشباب .

إنجلترا أيضا بدأت تدعم إنتاجها الثقافى المحلى ، وهناك القناة الرابعة مثلا مدعمة بالكامل من الدولة حماية لها من التدمير فى مواجهة الأخطبوط الأمريكى .

لا شك أن السيطرة الأمريكية على أوروبا بدأت منذ مشروع مارشال

(فى أعقاب الحرب العالمية الثانية) ، ذلك أن المعونة الأمريكية الاقتصادية لبلدان أوروبا الغربية قد صحبتها شروط معينة لفرض معونة ثقافية من الأفلام الأمريكية ، منذ ذلك الوقت غمرت أفلام رعاة البقر والجنس أسواق إنجلترا وألمانيا الغربية وإيطاليا وغيرها ، وأدت إلى تدمير الإنتاج المحلى الثقافى والاقتصادى فى آن واحد .

ولهذا السبب هربت الصناعات الأوروبية إلى البلاد الأضعف ، فى العالم الآخر (الذى سُمى بالعالم الثالث) ، حماية لنفسها من الانقراض أمام الزحف الأمريكى ، ولم تجد أوروبا (فى النهاية) وسيلة للمقاومة إلا عن طريق « الوحدة الأوروبية » لإثبات وجودها وهويتها الخاصة . الوحدة الاقتصادية والوحدة الثقافية فى آن واحد ، ذلك أنه لا يمكن الفصل بين الاقتصاد والثقافة .

إدمان الاستهلاك

إن انتشار ورواج الأفلام الأمريكية فى أى بلد ليس إلا انتصارا اقتصاديا وثقافيا للولايات المتحدة فى هذا البلد . إن مؤسسة هوليود مثلا لا تربح الأموال فحسب ولكنها تنشر الثقافة الأمريكية أو الهوية الاستهلاكية القائمة على الاستسلام الدائم للإعلانات والإغراء والقيم الاستهلاكية التى تدفع الملايين من فقراء العالم إلى شراء بضائع غير ضرورية لحياتهم .

مثلا لقد أدمن الناس فى بلاد العالم خاصة إفريقيا وآسيا وأمريكا

الجنوبية (أو العالم الثالث) على شرب الكوكاكولا ، وهو مشروب غير ضرورى بل ضار بالصحة ، ومثلا النساء الفقيرات أو المحدودات الدخل فى الريف أو المدن ، كم تحرم الواحدة نفسها من الضروريات ، مثل الغذاء الجيد ، أو الكتاب الجيد لتشترى مساحيق الوجه أو « ريميل » العيون ، وإصبع الروج الأحمر وغير ذلك من أنماط الاستهلاك التى ترى إعلاناتها فوق الشاشة .

وفى بنجلاديش (عام ١٩٩٣) رأيت بعينى شابات فقيرات شبه معدمات ، يعانين من الأنيميا أو فقر الدم ، ومع ذلك فإن الواحدة منهن لا تكف عن استهلاك هذه البضائع وابتلاع حبوب منع الحمل ، وتقليد النمط الأمريكى الذى تشاهده فى السينما أو التلفزيون ، وفى « داكا » عاصمة بنجلاديش رأيت طوابير الشباب الطويلة المئات ربما الآلاف يتزاحمون للدخول إلى قاعة السينما حيث يُعرض فيلم أمريكى ، (فوق الباب صورة كبيرة لامرأة عارية تحمل مُسدَّسا) . فى بنجلاديش بعض الشباب من مخرجى الأفلام ، قالوا لى إنهم عاجزون تماما عن العمل ، ولا قدرة لهم على مقاومة هذه المنافسة الأمريكية ، وأنهم فى حاجة إلى دعم من الدولة وإلا فليس هناك أمل . قالوا أيضا إن الأغلبية الساحقة من الشباب قد أدمنوا هذه الأفلام الأمريكية وأنه من الصعب علاج هذا الإدمان أو تقديم أفلام من نوع آخر أكثر عمقا أو أقل إثارة .

فى طريقى إلى بنجلاديش مررت بعدد من العواصم العربية ، رأيت السوق الحرة مزدحمة بنساء محجبات يتنافسن على شراء بضائع أمريكية أغلبها مساحيق وأدوات تجميل وأغطية للرأس أو أحجبة للنساء المسلمات مزينة بفصوص من اللؤلؤ ، ومصنوعة فى نيويورك أو نيوجرسى .

الشيكات والهوية

وفى مؤتمر فى سويسرا (١٩٩٣) حول صراع الحضارات والهويات التقيت بوفد إيرانى من عدد من الرجال وامرأة ترتدى العباءة السوداء ، رئيس الوفد يحمل لقب « آية الله » تقدمتُ إليه لأصافحه فلم يصافحنى إلا بعد أن غطى يده بطرف عباءته . واندهشت ، وسألته لماذا يخشى مصافحة يد المرأة بيده دون غطاء . فقال : أخشى الشيطان . قلت له : أنا هزمت الشيطان ، قال : أنا لم أهزمه !

كان معنا أيضا امرأة تختفى تحت خيمة سوداء أحكمت حجابًا حول وجهها وقالت : ما هى هويتك ؟ ألست مسلمة ؟ لماذا لا ترتدين الحجاب الإسلامى ؟ حركت يدها وهى تتكلم بانفعال فظهر ذراعها خارج العباءة محوطا بأساور وشخاليل ذهبية ، عيناها أيضا كانتا مكحلتين « بالريميل » الأمريكى يفوح منها رائحة « البرفيوم » وحول عنقها عقد من اللؤلؤ .

فى ذلك المؤتمر دار حوار حول الهوية الفردية والهوية الجماعية . قلت عن هويتى إننى امرأة مصرية مُنتجة لا أشترى الأساور ولا الشخاليل ولا الريميل ولا الأحجبة ، هويتى إنتاجية وليست استهلاكية ، وإنتاجى هو ثقافى عربى لأن لغتى هى العربية ، فأنا أكتب بالعربية للشعوب العربية التى سوف تتوحد ، وأشعر أننى فى وطنى سواء كنت فى المغرب أو المشرق ، إن بلاد أوروبا تتوحد اليوم رغم اختلافاتها فى اللغة والثقافة والسياسة والاقتصاد والتاريخ ، إن الاختلافات بين الشعوب العربية أقل منها بين الشعوب الأوروبية ، ولذلك فإننى أعتقد أن الوحدة العربية سوف تحدث عاجلا أو آجلا ، لأن التهديدات التى تواجه أوروبا هى نفسها التهديدات التى تواجه بلادنا اقتصاديا وثقافيا .

فى هذا المؤتمر وقفت أستاذة أمريكية وقالت : إن فكرة الهوية أو القومية إنما هى فكرة عنصرية تحاول تقسيم البشر إلى أجناس مختلفة ، وقوميات مختلفة ، والمفروض أننا نعيش فى مجتمع إنسانى واحد ، يقدم على العدل لا فرق بين الناس على أساس الجنس أو اللون أو الطبقة أو العقيدة أو العرق ... الخ .. الخ ..

وتساءلت بدهشة : هل نحن حقا نعيش فى مجتمع إنسانى واحد يقوم على العدل ؟ وأين هو العدل فى النظام العالمى الجديد ، أو فى اتفاقية الجات مثلا ؟

وتساءلت الأستاذة الأمريكية : الجات ؟ ! وما علاقة « الجات » بمؤتمرنا هذا عن الثقافة أو الحضارة ؟ !

لاحظت أن الأستاذة الأمريكية كانت ترتدى فى أذنيها حلقا ذهبيا كبيرا يزن حوالى نصف كيلو ، وفوق وجهها طبقة من المساحيق والألوان تخفى ملامحها الحقيقية ، على مائدة الغداء رأيتها ترمق المرأة المحجبة شذرا وسمعتها تهمس فى أذن جارها : لماذا هى تخفى وجهها بهذا الحجاب السميك الذى ينتمى إلى العصور المتخلفة ؟ وهمست فى أذنها : أنت أيضا تخفين وجهك بمساحيق عصر ما بعد الحداثة .

ما هى هويتى ؟

هكذا رأيت نفسى أو أدركت هويتى . إنها ليست على شاكلة تلك المرأة الأمريكية ولا هى على شاكلة تلك المرأة المحجبة كلاهما فى نظرى وجهان لعملة واحدة : « الهوية الاستهلاكية » ، هذه هى الهوية الأمريكية العالمية التى تهدد هويتنا الحقيقية ، لكن هناك تهديد آخر من الداخل ، تلك القوى السياسية التى تتصور أن هويتنا هى دينية فحسب ، وأن حماية هويتنا ، هو ارتداء الحجاب (أو زى معين) أو إخفاء وجوهنا ، أو رؤوسنا فى الرمال على حين تظهر عوراتنا على شكل ذلك الاستهلاك المجنون لكل ما هو أمريكى من زجاجة الكوكاكولا ، إلى الفيلم السينمائى أو التلفزيونى ، إلى إصبع الروج أو الريميل إلى حبوب منع الحمل أو اللولب وحقن النوربلانت والديبوبروفيرا .

إن كل شعب له هوية اقتصادية وثقافية تختلف عن الشعوب الأخرى كما أن الهوية الفردية تختلف عن الهوية الجماعية . لأن الإنسان الفرد له صفات خاصة تختلف عن الفرد الآخر .

مثلا أنا امرأة ولا يمكن أن تكون هويتى الفردية هى هوية الرجل . كلمة « هُوية » جاءت من الضمير المذكر « هُوَ » .

إن ضمير المؤنث « هى » ركن أساسى فى الشخصية الفردية للمرأة ، لذلك فإن كلمة « هُوية » لغويا لا تمثل إلا نصف المجتمع الذكور . لكن اللغة مثل الهوية الجماعية ، تعبر عن القوى السياسية والاقتصادية وليس عن الأغلبية العددية ، إن النساء فى بلادنا أغلبية عددية (٥٢٪ من السكان) لكنهن من حيث القوة السياسية والاقتصادية يدخلن تحت فئة « الأقلية » . أما الأقباط فى مصر فهم أقلية عددية لكنهم من حيث القوة السياسية والاقتصادية لا يدخلون تحت فئة « الأقلية » أو هكذا يرى أغلب المثقفين فى مصر .

لا شك أن أزمة « الهوية » ليست إلا تعبيرًا عن الأزمة الاقتصادية والثقافية التى تواجه العديد من بلاد العالم بسبب البطش الأمريكى الاقتصادى والثقافى والمدعم بقوة عسكرية كبرى .

التناقض المختفى وراء الشعارات

قرأت لمحرر جريدة « شيكاجو تريبون » (١٩٩٣) ما معناه أنه يقترح على الولايات المتحدة أن تصبح دولة عسكرية « مرتزقة » ،

تبيع الحماية العسكرية لغيرها من البلاد الأوروبية الغنية نظير أجر معين للحفاظ على مصالحها .

نشأت هذه الفكرة بعد حرب الخليج (١٩٩١) إذ دفعت بلاد الخليج العربى أموالا طائلة للولايات المتحدة نظير الدفاع عنها فى الحرب ضد العراق .

إن موضوع « الهوية » المثار هذه الأيام لا يمكن أن يُفهم إلا فى ضوء ما يحدث فى العالم غربا وشرقا وشمالا وجنوبا ، فنحن نعيش فى عالم واحد تحكمه قوة عالمية واحدة تريد التوحيد أو التدويل لخدمة مصالحها وأرباحها ، وتريد أيضا التقسيم أو التجزئة أو تفتيت الهويات الذاتية والمحليات لخدمة مصالحها وأرباحها أيضا . هذه هى الازدواجية أو التناقض المختفى وراء شعارات العدل أو الديموقراطية أو حقوق الإنسان أو السلام فى عصر ما بعد الحداثة .

أليست هى جريمة ثقافية ؟!

جئت إلى الوطن فى إجازة قصيرة . أول مَنْ طرق بابى فتاة فى التاسعة عشرة طالبة بكلية الطب ومعها شقيقها يكبرها بعامين فى كلية الهندسة . كانت الفتاة ترتعد . تطلب منى أن أفحصها طبيا ، قالت إن عفريتا من الجن تسلل إلى فراشها فى الليل ! عقد الذهول لسانى . كنت عائدة لتوى من جامعة ديوك حيث أُدرِّس « الإبداع » للطلاب والطالبات من مختلف التخصصات والجنسيات بما فيهم طالبة مصرية تدرس الطب والأدب معا وطالبة من لبنان تدرس البيولوجى والميكروبيولوجى توصلت إلى اكتشاف مادة كيمائية جديدة وأخرى من فلسطين أقامت لها جمعية الطلبة احتفالا لإبداعها الموسيقى ، إن عقل المرأة العربية مثل عقل أى إنسان آخر فى الغرب أو الشرق أو الشمال أو الجنوب وهى قادرة على الإبداع فى مجال العلوم والفنون .

أصابتنى صدمة وأنا أستمع إلى طالبة الطب تحكى عن عفريت من الجن يضاجعها خلسة فى الليل ، قلت لها هذا غير معقول ! ردت الفتاة بكل صلابة : بل معقول يا دكتورة ويؤكده لنا الدكتور « فلان »

من أكبر العلماء والدعاة .إلا أن شقيقها طالب الهندسة عارضها قائلاً إن هذا الدكتور العالم الكبير قال إنه من الممكن للرجل من البشر أن يضاجع الجنية من العفاريت ويستمتع بها لكن العكس غير صحيح ؛ بمعنى أن العفريت من الجن لا يمكن أن يضاجع فتاة من البشر وإلا حملت جميع بنات حواء !

تضاعفت صدمتى وذهولى .أيمكن أن يحدث هذا فى مصر عام ١٩٩٥ ؟ ! واشتبك طالب الهندسة مع أخته طالبة الطب فى حوار عجيب حول العفريتة الأنثى أو الجنية هى وحدها القادرة على مضاجعة الرجال من البشر ، أما العفاريت الذكور فلا وإلا حملت بنات آدم جميعا . الأخت راحت تؤكد لأخيها أن العفريت الذكر لا يقل قدرة عن العفريتة الأنثى بل يفوقها قدرة بالمنطق والعقل . وجاء الرد من أخيها قائلا : المنطق ليس كل شيء ، وعقل الإنسان عاجز عن إدراك هذه الأرواح من الجان .

هنا أفقت من ذهولى وسألته : إذا كان العفريتة الجنية من الأرواح فكيف يصبح لها جسد تضاجع به الرجال ؟ !

أدركت الطالبة شيئا من العقل فى هذا السؤال إلا أنها أصرت على أن أفحصها طبيا لمجرد الاطمئنان . رفضت طلبها فخرجت من عندى وذهبت إلى طبيب آخر كما عرفت من أخيها فى اليوم التالى .

ثم قرأت فى الصحف عن انعقاد مؤتمر دولى فى القاهرة لمنع

الجريمة . بحثت فى جدول أعمال المؤتمر عن جلسة لمناقشة الجرائم الثقافية مثل هذه . أليست هذه جريمة تدمر عقول الشباب والشابات ؟ !

منذ عدة سنوات كتبت فى جريدة الأهرام عن طالبة الطب التى سألت أحد علماء الدين هذا السؤال ، هل تشريح جثة رجل بواسطة طالبة أنثى حلال أم حرام ؟ سؤال غريب لم يخطر على بالى وأنا طالبة فى كلية الطب منذ أربعين عاما . إلا أن رد الأستاذ العالم كان أغرب من سؤال الطالبة إذ قال لها : « إذا كان التشريح فى غرفة مظلمة يكون حلالاً حتى لا ترى الطالبة عورة الرجل ! » .

يا إلهى درسنا الطب ولم نسمع عن شىء اسمه « عورة » تحت مشرط الطبيب .لم يكن هناك حياء فى العلم أو الطب .كنت أفحص الرجال كما أفحص النساء ، فالرسالة الطبية الإنسانية تتجاوز الجنس والعرق والطبقة واللون والعقيدة ، وفى ميدان الحرب واجب الطبيب الإنسانى أن يعالج جنديا من الأعداء بمثل ما يعالج جنديا من الوطن .

هل يمكن مناقشة الجرائم الثقافية مثل الجرائم الأخرى ؟ فاليد التى تمسك آلة قتل لا تمسكها إلا بعد الاقتناع الفكرى بأن القتل هو العلاج .

أى أن الفكرة القاتلة تسبق اليد القاتلة ، والعنف الجسدى يتولد عن العنف الفكرى والثقافى .

جاءنى عبر أسلاك التلفون صوت طالبة الطب مرة أخرى . فحصها طبيب ممن يؤمنون بوجود العفاريت من الجن ذكورا وإناثا ، وقدرتهم على التسلل ليلا إلى الرجال والنساء لا فرق . بل أكد لها إن إحدى الجنيات جاءته ليلا فطردها بقراءة آية الكرسى . كانت الفتاة ترتعد وتقول لى عبر الأسلاك : « إذا جاء العفريت وأنا نائمة ماذا أفعل ؟ قد يفعل كل شىء وأنا غارقة فى النوم قبل أن أقرأ أى شىء ! أصبحت أرقد مفتوحة العينين لا يغمض لى جفن أردد آية الكرسى » .

أيمكن لمثل هذه الطالبة الجامعية أن تتفوق فى دراستها إذا ظلت طول الليل مؤرقة مذعورة ؟

هذه العملية ، تخويف الشباب والشابات أو بث الرعب فى نفوسهم من عفاريت الجن أليست هى جريمة ضد العقل المصرى ولا أقول الإبداع .

هل يمكن لمثل هذه الطالبة أن تكون طبيبة مبدعة قادرة على اكتشاف شىء بل علاج المرضى أو المريضات ؟

وطالب الهندسة الأخ المؤمن بالعفاريت الذكور فحسب هل يمكن أن يبتكر شيئا فى مجال الهندسة أو حتى يعمل مهندسا عاديا يستخدم عقله فى مشاكل الحياة ؟

إن الإبداع نقيض الخرافة واللامعقول . الفرق الوحيد بين المبدع والمجنون أن المبدع ليس مجنونا بل عاقلا جدا إلى حد الإبداع . إلى

حد تحويل العقل غير الواعى إلى عقل واع ، مما يسمى اليوم « الوعى الأعلى » .

تحويل خلايا الخوف والطاعة والاستكانة والسلبية إلى خلايا جريئة نقدية متجددة قادرة على تطوير الإنسان (المرأة والرجل) إلى كائن أكثر عقلا وليس أقل عقلا .

هناك من يحاولون الاستهانة بالعقل . يقولون إن الحضارة الغربية الرأسمالية بنيت على العقل وأدت إلى ما نراه اليوم من فساد واستعمار وتحويل الإنسان إلى آلة وسلعة فى السوق الاستهلاكية . هذه بعض سلبيات الحضارة الغربية لكنها لا ترجع إلى الفكر العقلانى أو الفلسفة المادية كما يتصور البعض . إنها ترجع أساسا إلى الفكر الاستعمارى والجشع الاقتصادى الرأسمالى .

هناك من يقعون فى تلك الثنائية الخاطئة التى تقسم العالم إلى غرب يؤمن بالماديات وشرق يؤمن بالروحانيات .ذلك أن الحضارات شرقا وغربا مادية وروحية فى آن واحد ، والإنسان جسد وعقل وروح لا انفصال بينها .

المشكلة هى تطور أسلحة الحرب والدمار الشامل فى الغرب وأصبحت الغلبة لمن يملك السلاح وليس لمن يملك العقل . إن الصراع الدائر اليوم حول مَنْ يملك السلاح النووى ومَنْ لا يملكه ليس إلا حلقة واحدة فى سلسلة طويلة ممدودة فى التاريخ منذ نشوء

الاستعمار لن تنقطع إلا بنزع السلاح عن الجميع دون استثناء بما فيهم الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وليس إسرائيل فقط .

إن الحرب هى أكبر الجرائم فى العالم ، وهى دائما من أجل الأرض أو المال أو البترول أى « الاقتصاد » لكنها تتستر دائما تحت أردية دينية أو أخلاقية أو إنسانية . ويلعب « الإعلام » الحديث الدور الأكبر لتغطية الحقائق المادية بستائر من الروحانيات .

وفى الغرب اليوم تصاعدت التيارات السياسية الدينية مسيحية ويهودية وبوذية وغيرها ، وهناك مَنْ يروجون الخرافات والعفاريت والأرواح الخفية ويطالبون بحذف نظرية داروين من مناهج المدارس لأنها تتعارض مع نظرية الخلق الواردة فى الكتاب المقدس .

لكل حضارة سلبيات وإيجابيات ومراحل صعود وهبوط . فى نهاية هذا القرن العشرين نحن نعيش حالة من الهبوط فى مختلف نواحى الحياة أخطرها الهبوط الثقافى وانتشار الخرافات بين المتعلمين وحملة الشهادات العليا .

من سلبيات الحضارة الغربية والشرقية على حد سواء أنها فصلت بين العقل والجسد والروح . مزقت الكيان الإنسانى الكل إلى ثلاثة أجزاء متطاحنة تقضى على الإبداع لدى أغلب البشر إلا هؤلاء القلة المبدعين الذين يعملون بعقولهم وأجسادهم وأرواحهم دون انفصال .

سئل أحد الأطباء الشعراء ما الفرق بينه وبين الأطباء الآخرين ؟

فقال أنا أعمل بكيانى كله أما هم فيعملون برؤوسهم فقط . ويعنى بالرأس العقل المجرد الجامد بلا مشاعر ولا روح .

إن الفصل بين التفكير والشعور آفة من آفات الحضارة الحديثة شرقا وغربا ، وقد بدأت مدارس جديدة فى العالم تربط بين العلم والفن وبدأت بعض كليات الطب تدرس الموسيقى والأدب والشعر لطلبة الطب بمثل ما تدرس لهم التشريح والجراحة والفيروسات .

بدأت مادة جديدة اسمها الإبداع ، تدخل المناهج فى الكليات العلمية والنظرية على حد سواء . أصبح « الخيال » العلمى أو الفنى ضرورة والحلم جزءا من الحقيقة . أصبحت للإنسان جذور ممتدة فى الأرض مثل الشجرة ورأس محلق فى السماء . إلا أنه رغم التحليق والطيران يظل قادرا على العودة إلى أرض الواقع وجسد الحقيقة .

هناك فارق كبير بين « الخيال » العلمى أو الفنى ، والخيال الخرافى . تماما مثل الفارق بين الإنسان المبدع والمريض نفسيا أو عقليا . مثل الفارق بين الحلم والوهم . مثل الفارق بين العفاريت أو الجنيات وبين البشر من الرجال أو النساء .

لكل إنسان مبدع حلم كبير يسعى لتحقيقه وان بدا للآخرين كأنما هو مستحيل . لكن المجنون يعيش فى وهم ويتصور خيالات لا يمكن أن تكون .

بين الحلم والوهم مسافة كبيرة هى العقل الإنسانى فى قدرته الإبداعية حين يلتحم بالجسد والروح دون انفصام .

هل يمكن أن تدخل مادة « الإبداع »فى مدارسنا وجامعاتنا حتى يصبح لدينا أجيال من الشابات والشباب من ذوى العقول المبدعة لا يؤمنون بالخرافات ؟ !

إن علاج الجرائم الثقافية لا يمكن أن يكون إلا ببناء العقل السليم فى الجسم السليم فى الروح السليمة دون فصل بين الثلاثة داخل كيان الإنسان الواحد .

الثقة بالنفس والصراع الحضارى

إحدى المجلات الفلسفية العالمية اليوم تحمل اسم امراة مصرية أصدرت عددا من المؤلفات الفكرية الهامة ، اسمها الفيلسوفة « هيباثيا » كانت تعيش بمدينة الإسكندرية ضمن القيادت الفكرية بها ، حين دخلها الغزاة الأجانب فحرقوا كتبها وقتلوها (عام ٤١٥ ميلادية) مزقوا جسدها أشلاء فى شوارع الاسكندرية ، ربطوا جثتها بذيول الخيول ، داروا بها فى إنحاء المدينة كلها ليشهد الناس ، ويتعظوا ، ويكفوا عن التفكير ،ثم قتلت « هيباثيا » مرة ثانية تاريخيا ، حين حذف اسمها من تاريخ الفلسفة على يد المستشرقين الأوروبيين الذين اشاعوا أن الفلسفة بدأت فى أوروبا بالفلاسفة اليونانيين ، وأن الحضارة المصرية لم يكن بها فلسفة ولا فكر ، وإنما قامت على الانحرافات والخزعبلات وبناء المقابر للملوك والفراعنة .

أصبحت مجلة « هيباثيا » الفلسفية تتصدر الكتب والمجلات فى مكتبات الجامعات الكبرى فى العالم ، يعرفها الطلبة والطالبات فى أقسام الفلسفة يقدمون عنها الأبحاث والدراسات ، وهى لاتزال فى وطنها المصرى مجهولة ، لا أحد يعرف عنها شيئا فى الجامعات

أو المدارس المصرية ، بل لايزال التلاميذ والتلميذات فى بلادنا يقرأون هذه العبارة فى كتبهم المدرسية حتى اليوم « بدأت الفلسفة فى اليونان ، والحضارة المصرية قامت على الخرافات والخزعبلات » هذه العبارة مدونة فى الكتب لأحد كبار الفلاسفة المصريين ، لابد أنه نقلها من كتاب فى علم المصريات (الإيجبتولوجى) الذى حول الحضارة المصرية العريقة من حضارة الفلسفة والأفكار إلى حضارة الموت والأحجار ، أرجو من زميلى القديم فى كلية الطب (الدكتور حسين كامل بهاء الدين) بصفته وزيرا للتعلم أن يسعى إلى تنقية الكتب المدرسية من مثل هذه العبارات ، وأن يدعو إلى إعادة قراءة تاريخنا وحضارتنا المصرية ، ليس من باب التمجيد الأعمى واعتبارها نقية خالصة بلا سلبيات ، ولكن بالرؤية النقدية السليمة القادرة على إدراك الإيجابيات والسلبيات لا فرق .

قرأت فى إحدى المجلات مقالا يتخذ شكل العلم يقول إن المرأة ناقصة العقل ، بسبب الهرمون المؤنث فى جسمها ، ولأن مخ الرجل يزن أكثرمن مخ المرأة . منذ نصف قرن قرأت هذه العبارة وأنا طفلة فى القرية ، وتصورت أن عقل الحمار يتفوق على عقل الرجل لأنه أكبر وأثقل وزنا ، إلا أن أبى شرح لى أن الفكرة خاطئة يرددها المفكرون الأوروبيون الاستعماريون ومعها الفكرة الأخرى أن عقل الرجل الإفريقى الأسود ناقص عن عقل الرجل الأبيض ، وهى فكرة

موروثة منذ العبودية ، منذ ادراج العبيد والنساء والحيوانات داخل فصيلة واحدة وأن الذكاء لا علاقة له بوزن المخ أو لون البشرة أو نوع الجنس .

لماذا إذن نستمر فى تلقين التلاميذ والتلميذات فى بلادنا بتلك الأفكار العنصرية القديمة التى تسلب من الفتى أو الفتاة المصرية الثقة بالنفس والاعتزاز بالماضى ؟ ! رغم كثرة الحديث عن أهمية أحياء التراث والهوية الأصلية أو الأصالة الفكرية لم تنعكس هذه الدعوة إلى دراسة تراثنا المصرى ولا العربى ، بل لازلنا نردد أفكارا تحقر من حضارتنا المصرية والعربية وتحقر أيضا من نصف المجتمع أى النساء . إن الثقة بالنفس هى الحجر الأساسى الذى يبنى عليه التفكير وتكوين العقل المستقل القادر على خلق الأفكار الجديدة أو الاكتشافات فى مجال العلوم أو الآداب أو الفنون . وفى الوقت الذى نسلب فيه شبابنا وشاباتنا الثقة بالنفس نطلب منهم أن يكونوا مفكرين مبدعين ، وفى الوقت الذى نحشو فيه أدمغتهم بالخرافات وحكايات الجن والعفاريت أو الشياطين نطلب منهم أن يكونوا عقلاء منطقيين ، وألا يقعوا فريسة الخرافات والشاطين ، لهذا السبب يتخبط عدد غير قليل منهم بين الأفكار الدينية المتطرفة غير المنطقية وبين الأفكار العقلانية المتطرفة أو العقل النظرى الجامد المفصول عن الواقع المعاش .

أصبح الصراع بين الحضارات أو الحوار بين الثقافات قضية فكرية منتشرة اليوم وكان يمكن أن تؤدى إلى مزيد من الوعى بالايجابيات

والسلبيات فى كل حضارة خاصة أن الحضارات البشرية تتداخل بعضها فى بعض تمتزج عبر السفر والاتصال بين البلاد والشعوب خاصة فى عصرنا هذا مع التقدم التكنولوجى الهائل فى وسائل الاتصال وتبادل المعلومات إلا أن الصراع أو الحوار لايزال يتخبط ما بين التمجيد الاعمى للذات والتحقير الأعمى للآخر ، أو العكس ، أى التحقير الأعمى للذات والتمجيد الأعمى للآخر .

هذه المشكلة ليست مقصورة على المفكرين فى بلادنا ، بل هى السمة الأساسية أو الطريقة التى يفكر بها معظم الفلاسفة الاوروبيين والأمريكيين اليوم ، أنهم لم يتخلصوا فى معظم الاحيان من الفلسفة العبودية أو الاستعمارية القديمة والجديدة . بعضهم من أمثال « صمويل هانتجتون » يميل إلى تمجيد الحضارة الغربية الأوروبية والأمريكية تمجيدا أعمى كأنما هى الحضارة الكونية العظمى الخالية من السلبيات وغيرها من الحضارات خاصة فى الشرق (مثل الحضارة العربية أو الاسلامية) هى حضارات متخلفة قاصرة ، مصيرها إلى الزوال ، لأنها لا تقوم على العقل بل على الخرافات ، أو القيم الاستسلامية التى تجعل الانسان بلا إرادة يخضع للقوى غير المرئية فى الدولة والدين معا .

وبالمثل فى بلادنا يميل المفكرون إلى تمجيد الحضارة العربية أو الاسلامية كأنما هى حضارة نقية خالصة كلها ايجابيات ،

والحضارات الأخرى (مثل الحضارة الغربية) فهى غير نقية فاسدة تؤمن بالماديات فقط دون الروحانيات ولا تعرف إلا الانطلاق وراء اللذات والشهوات الحيوانية التى يوسوس بها الشيطان .

مثل هذا الحوار أو المباراة بين المفكرين للتمجيد المطلق أو التحقير المطلق لا يمكن أن يثمر عن فكر جديد مبدع خلاق ، لأن الابداع الفكرى الانسانى يرتفع فوق التقسيمات المفروضة على البشر على أساس النوع أو الجنس أو الجنسية أو العرق أو الطبقة أو العقيدة أو غيرها .

لهذا نلاحظ دائما أن المبدعين الحقيقيين فى مجالات العلوم الطبيعية أو الاجتماعية ينهلون من كل الحضارات والثقافات ، يثقون بأنفسهم ، ولا يخافون الانفتاح على الحضارات الأخرى ، وهم على استعداد دائم لالتقاط الايجابيات فى أى حضارة والاستفادة منها فى أعمالهم العلمية والفنية .

كنت اقرأ لاحد العلماء المعاصرين واسمه (موراى جيل مان) كتب يقول إنه مدين لاكتشافه للجزئ الجديد داخل الذرة الذى اسماه « الكوارك » إلى عدد من العلماء والفنانين فى العالم ، منهم صديقه الشاعر « أرثر سيزو » ومنهم أيضا الفيلسوف العربى « محمد بن موسى الخوارزمى » وهو الذى اكتشف « اللوغاريتم » وعلم الجبر فى القرن التاسع الميلادى ، وكلمة « اللوغاريتم » قد حورت عن الكلمة العربية الخوارزم وهى المنطقة التى عاش فيها « الخوارزمى » وأبدع فيها

نظرياته الرياضية ، التى لعبت دورا فى عقل « موارى جيل مان » وساعدته على اكتشاف « الكوْارك » الذى هو أصغر حجما من الالكترون وينطوى على طاقة هائلة غير معروفة حتى الآن ، وقد تؤدى إلى ثورة فكرية جديدة فى المستقبل أكبر من الثورة الالكترونية ، والتى أدت إلى هذا العصر الذى يطلق عليه اسم عصر المعلومات والاتصالات الالكترونية .

هل يدرس التلاميذ والتلميذات فى بلادنا العربية شيئا عن محمد بن موسى الخوارزمى ؟ لقد درست اللوغاريتمات وأنا تلميذة بالمدرسة الثانوية ، وكنت أظن أنها إحدى الاكتشافات الأجنبية مثل نظرية فيثاغورس ، وكان خيالى يسرح ويراودنى حلم أننى فى المستقبل ربما اكتشف فكرة جديدة فى علم الرياضة أو الفلسفة ، لكن المدرسين فى المدرسة كانوا يسخرون منى ، يقولون أن المرأة ليس مجالها الفلسفة ، وأن الفلسفة علم صعب لا يقوم به إلا العباقرة من الرجال ، ليس منهم أحد مصرى وكلهم من اليونان والبلاد الأوروبية .

مظاهرات فى واشنطن

قرأت دعوة فى الصحف بإمضاء زعيمة الحركة الديموقراطية للنساء (واسمها نادين سميث) للمشاركة فى مظاهرة كبيرة فى واشنطن يوم ٢٥ إبريل ١٩٩٣ ، تقول الدعوة إنها مظاهرة سوف يشترك فيها أكثر من مليون رجل وامرأة فى الولايات المتحدة ، تنظمها حركة تحرير السود ، وتحرير المرأة وتحرير الشباب ، وتحرير أيضا ما يطلق عليهم (gays) إو ذوى الميول الجنسية المثلية .

كانت واشنطن ، العاصمة ، تلك المدينة الصغيرة الهادئة حيث البيت الأبيض ، كانت دائما محط المظاهرات الشعبية ، أول مرة زرت فيها واشنطن كان (عام ١٩٦٥) حين كنت أدرس فى جامعة كولومبيا فى مدينة نيويورك ، جاءتنى زميلتى « ماريون فورر » فى ذلك الوقت وقالت : غدًا فى واشنطن سنتجمع فى مظاهرة كبيرة ضد الحرب فى فيتنام .

وذهبت معها ، ركبنا القطار من نيويورك إلى واشنطن ، لا أذكر من المظاهرة إلا آلاف الأجسام واللافتات والهتافات ضد « جونسون » .

فى كل مرة أزور فيها الولايات المتحدة يتصادف وجود مظاهرة كبيرة فى واشنطن ضد حرب من الحروب ، آخرها كانت حرب الخليج ، لا ليست آخرها ، فقد اشتركت فى مظاهرة أخرى ضد الحرب فى البوسنة ، جاءتنى الدعوة من رئيسة الجمعية النسائية الأمريكية (NOW) ، واسمها باتريشيا أيرلاند ، قالت فى الدعوة : سوف ننظم مظاهرة كبيرة ضد اغتصاب النساء فى البوسنة ، يوم الأحد ٢١ فبراير ١٩٩٣ الساعة ١٢ ½ ظهرًا ، بميدان دوبون بالعاصمة واشنطن ، ونحن ندعوك ضمن خمسة نساء من العالم لإلقاء كلمة فى هذه المظاهرة .

لازلت أذكر هذا اليوم ، كانت عاصفة ثلجية تجتاح الشاطئ الشرقى كله للولايات المتحدة ، وقفت فى المظاهرة فوق الثلج ، ومن فوق رأسى . (رغم المظلة السوداء التى أمسكتها بأصابعى المثلجة) كانت الثلوج تتساقط من السماء مثل الشظايا اللاسعة ، كان قد تجمع حوالى ثلاثمائة امرأة ورجل يرتجفون من الصقيع ، لكن الحرارة تسربت إلى جسدى من حيث لا أدرى حين بدأت ألقى كلمتى .كان هدفى أن أربط بين الحرب فى يوغوسلافيا والحروب السابقة عليها ومنها حرب الخليج . لقد أصبح العالم كله محكومًا بقوة عسكرية صناعية دولية مركزها الولايات المتحدة الأمريكية ، قوة كبرى واحدة يحكمها قانون الغابة ، أو قانون القوة وليس الحق . قانون الربح المالى

السريع وتراكم رأس المال ، قانون القتل والاستيلاء على البترول أو المواد الخام بأرخص الأسعار من إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية .

قلت للمتظاهرات والمتظاهرين : إن اغتصاب النساء فى البوسنة إنما هو أحد نتائج هذا النظام العالمى الجديد أو القديم ، النظام القائم على القوة المسلحة ، نظام العسكر فى كل أنحاء العالم ، النظام العنصرى الطبقى الأبدى الذى يسيطر على البشر منذ نشوء العبودية .

ثم عدت إلى ديرهام . وجاءتنى رسالة من « مارى جوزيه رجب » .

إنها واحدة من العضوات النشطات اللائى نظمن المظاهرة فى وشنطن . وهى من أصل فرنسى متزوجة من أستاذ مصرى خبير فى الاقتصاد اسمه الدكتور رجب ، قالت لى فى رسالتها : لازال صدى كلمتك فى نفوس النساء والرجال هنا خاصة الفقراء منهم ، وقد شهدنا جزءًا من المظاهرة على شاشة « سى . إن . إن . » ورأيناك ، لكن للأسف حذفت « سى . إن . إن » كل كلامك عن حرب الخليج .

أجل ، لم يكن هذا غريبًا علىّ ، فأنا أعرف أن أجهزة الإعلام فى الولايات المتحدة (مثل أجهزة الإعلام فى بلادنا العربية تتحدث كثيرًا عن الديموقراطية ، لكنها تمارس نوعا من الرقابة ، ولا تسمح إلا بذلك القدر الضئيل من الحرية الذى لا يمس المصالح العليا لذوى المال والسلاح .

على الشاشة الأمريكية رأيت حوارًا بين قائدين فى الجيش الأمريكى حول السلاح النووى فى كوريا الشمالية ، أحدهما كان يقول : لابد أن نلقى القنابل على كوريا الشمالية إذا لم تطع الأوامر ، وتكشف لنا عن سلاحها النووى ، كما فعلنا مع صدام حسين ، ويرد القائد الآخر يقول : ولماذا نلقى القنابل ؛ ألا توجد طريقة أخرى غير الحرب لإرغامها على ذلك ؟ ألا يمكن أن نستخدم عقوبات اقتصادية مثلاً ؟ !

يستمر الحوار حوالى نصف ساعة حول نقطة واحدة . هل تعلن أمريكا الحرب على كوريا الشمالية أم تعاقبها اقتصاديا فقط ؟ !

كدت أخترق شاشة التليفزيون وأسأل : وما دخل أمريكا فى هذا ؟ ولماذا تملك أمريكا السلاح النووى ثم تحرمه على الآخرين ؟ بل لماذا تملك إسرائيل السلاح النووى فلا تعاقبها أمريكا بمثل ما تعاقب الآخرين ؟ !

وفجأة سمعت المذيع الأمريكى يقول لهما : كلنا نعرف أن إسرائيل تملك القنبلة النووية فهل نعاملها كما نعامل كوريا الشمالية ؟ !

وهنا دب الصمت لحظة . ثم تنحنح ذلك القائد العسكرى الذى كان متحمسا لضرب كوريا الشمالية بالقنابل ، وقال بصوت منخفض : نعم ، لكن وضع إسرائيل يختلف كثيرًا .

ثم أعلن المذيع عن نهاية البرنامج ، ورأيت امرأة ترتدى مايوه قطعتين وترقص فوق زجاجة من صابون شامبو « بريل » .

وكانت أمامى الدعوة للاشتراك فى المظاهرة الكبيرة فى واشنطن يوم ٢٥ أبريل ١٩٩٣ ، أكثر من مليون امرأة ورجل من البيض والسود ومن مختلف الجمعيات في أمريكا الشمالية ينظمون هذه المظاهرة الضخمة ، لماذا ؟ بدأت أقرأ الورقة بإمعان : « إنها مظاهرة من أجل إنهاء العنصرية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، أو إنهاء التفرقة بين الأمريكيين على أساس الجنس ، كلمة « الجنس » هنا تعنى حرية اختيار « الجنس نفسه » فى العلاقات الخاصة .

وأواصل القراءة : « سوف تستمر المظاهرة أسبوعًا كاملاً ، من أجل الضغط على « بيل كلينتون » حتى يسمح للرجال من ذوى الميول المثلية (gays) بدخول الجيش . إن الهدف من المظاهرة يتجاوز الهدف العسكرى هذا ، فنحن نريد الضغط من أجل إصدار قانون جديد فيدرالى يعطى الرجال والنساء (من ذوى الميول المثلية) جميع الحقوق المدنية والقانونية فى جميع المجالات ، ونريد كذلك اعتماد ميزانية أكبر فى مجال البحوث الخاصة بمرض الإيدز ، والرعاية الصحية للمرضى ، كما نريد أيضًا أن تشمل مناهج المدارس العامة فى أمريكا على معلومات عن الجنس والجنسية المثلية وغيرها من أنواع الأنشطة البيولوجية فى حياة البشر .

يقود هذه المظاهرة رجل اسمه « جاى ليتنر » وهو مدير كنيسة المسيح فى واشنطن ، وهو يقول فى الدعوة : « إن جبهة الحقوق المدنية التى أصدرت القوانين فى الستينات لإنهاء العنصرية على أساس اللون

تتجمع الآن من أجل إصدار قوانين تنهى الاضطهاد الواقع على النساء والرجال من ذوى الميول الجنسية المثلية .

خلال شهر فبراير ١٩٩٣ تراجع « بيل كلينتون » وقرر تأجيل خطته (على الأقل ستة أشهر) ، والتى شملت السماح للرجال من ذوى الميول المثلية بدخول الجيش .

وفى الصحف قرأت بعض التصريحات المعارضة لهذه الحركة ، ومنهم رجل صحفى (فى جريدة بوسطن جيرالد) اسمه « دون فيلدر » كتب يقول : ما هذا الذى يحدث ؟ ! إن هذه الحركة (يقصد حركة الـ "gays" أو ذوى الميول المثلية) ليست إلا عارًا على أمريكا أو محاولة لإلغاء الفارق بين الخير والشر .

يوم ١١ مارس ١٩٩٣ دعيت لإلقاء محاضرة فى جامعة نورث كارولينا .

كانت القاعة مكتظة بالطلبة والطالبات والأساتذة وعدد أيضًا من القساوسة الكاثوليك ، دار الحوار حول حقوق المرأة فى الشمال والجنوب ، كان أحد القساوسة غاضبا لأن « بيل كلينتون » رفع القيود التى كان « جورج بوش » قد فرضها على حق الإجهاض .قبل يوم واحد يوم ١٠ مارس ١٩٩٣ كان الدكتور « ديفيد جان » ، قد قتل رميًا بالرصاص حين كان يتأهب لإجراء عملية إجهاض فى المركز الطبى النسائى فى بينساكولا بولاية فلوريدا .

وقال القسيس الكاثوليكى بحماس : إن موت الدكتور ديفيد جان سوف ينقذ أرواح الآلاف من الأجنة التى كان يقتلها فى عمليات الإجهاض ، وأنا أتفق تماما مع « جون تريشمان » رئيس جمعية إنقاذ أمريكا ، والذى يقود حملة لمنع الإجهاض حفاظا على الحياة .

انبرت له شابة أمريكية من الطالبات وقالت : ماذا تعنى بكلمة الحياة هذه ؟ إذا كنت أنا المرأة الحامل فأنا وحدى صاحبة الحق فى أن أبقى حاملاً أو غير حامل ! وإذا كنت حريصًا على الحياة إلى هذا الحد فلماذا لا تحرك ساكنًا حين يُقتل آلاف الأطفال والنساء والرجال فى الحروب الدائرة فى العالم أو بسبب الجوع أو الفقر المفروض على شعوب العالم الثالث ؟ !

وانتقل الحوار من الإجهاض إلى الحرب ، ومن الحرب إلى السياسة ، ومن السياسة إلى الدين والأدب والمرأة ، أصبحت كل الأشياء مترابطة ،وفى نهاية الحوار وقف القسيس الكاثوليكى وأعلن أنه تعلم شيئًا جديدًا ، ذلك أن « الحياة » من حق كل إنسان يعيش فى أفريقيا أو أمريكا أو العراق أو البوسنة أو كوريا أو غيرها . أما الإجهاض فهو حق المرأة لأنها تملك جسدها وتملك الجنين داخلها طالما أنه لم يولد بعد ، أما بعد الولادة فلا أحد يملك الحق فى أن يسلبه الحياة .

أحد الطلاب فى فصل المرأة والإبداع اسمه « جيسون شولتز » وهو من أشد الرافضين لما يسمى اليوم « النظام الأبوى » الذى يقهر النساء

والرجال أيضًا ، إنه يحب الكتابة الأدبية ، ويميل إلى الرقة والهدوء ، ولذلك فإن معظم صداقاته مع الطالبات وليس الطلبة . ويقول جيسون وفي عينيه ما يشبه الدموع : « هذا النظام الأبوى جعلنى أعيش مع الخوف ، الخوف من أن أعبر عن عواطفى الحقيقية ، الخوف من أن أبكى ، الخوف من أن أظهر مشاعرى لزملائى من الذكور وإلا اتهمت بالشذوذ ، كان لى صديق وأنا تلميذ صغير ، لكن ما إن بلغت سن ١٤ سنة حتى بدأت أبتعد عن صديقى وأقترب من الفتيات ، كأنما عواطفى الرقيقة يجب أن تتجه للإناث فقط ، ولهذا تصبح العلاقات بين الرجال خشنة فظة أساسها التنافس للحصول على المرأة أو المال أو النفوذ ، أما عواطفى الرقيقة نحو النساء فهى أيضًا مزيفة لأن مَنْ لا يعرف الصداقة أو العواطف الرقيقة مع الرجال لا يعرفها أيضا مع النساء ، هذا النظام الأبوى يجردنا جميعا من العواطف الحقيقية الرقيقة سواء كنا رجالاً أو نساء . إن كلمة (Randam) من الكلمات التى يحرمها هذا النظام الأبوى . كلمه « راندام (Randam) تعنى الاختيار العشوائى ، وبدون العشوائية أو التلقائية لا يكون هناك فن حقيقى . إن الناس هنا تتكلم لغة واحدة . لغة محكومة بقاموس أشبه بالبوليس ، بدون تغيير اللغة لن يكون هناك أدب ولا فن ، لماذا يغير الناس ملابسهم ولا يغيرون لغتهم ؟ ! وما هو الإبداع إن لم يكن إبداع كلمات جديدة ؟ !

إننى أتبع طريقة جديدة فى التدريس فى هذه الجامعة . حقيقة الأمر أننى أكره التدريس والمدرسين ، إننى أحاول أن أبدأ حوارا

أو سؤالا على نحو مختلف ، وقد أناقش فى الفصل فيلما سينمائيا رأيته بالأمس ، أو حفلة موسيقية شهدتها فى إحدى القاعات .

أحرص دائمًا على متابعة ابتكارات الطلاب والطالبات فى مجالات الأدب والفن ، وهناك فرقة موسيقية تقدم نوعًا جديدًا من الموسيقى تسميه « موسيقى القرن الواحد والعشرين » ، أو موسيقى ما بعد عصر الحداثة . (Fast-modern music) شابة أمريكية اسمها « بينكا كونيفا » تقود الفرقة . مزيج من الآلات . تتداخل النغمات بعضها بالبعض فى سيولة ، البيانو مع الجيتار مع الكمان والشيلو مع الآلات الإلكترونية ، والنحاسية ، وغيرها من آلات حديثة وقديمة ومتوسطة تذوب معا كأنما الماضى والحاضر والمستقبل يذوب فى سائل واحد . موجات متصاعدة متقاربة ومتباعدة ولا شىء يربطها إلا تلك السيولة ، يقولون : إن الصفة الأساسية لعصر ما بعد الحداثة هو السيولة : هو هدم كل القواعد الصلبة التى تحول دون السيولة .

« أنا لا أفهم الموسيقى ولكننى أحسها » هكذا يقول أستاذ الموسيقى فى جامعة ديوك وعازف البيانو . اسمه « جون هانكز » .

كنت أظن أننى الوحيدة التى لا أفهم الموسيقى ، فأنا أسمع الألحان وأشعر بالفرح أو الحزن أو الغضب أو الثورة أو غيرها ، لا أعرف لماذا يهزنى هذا اللحن أكثر من غيره ؟ ولماذا أعرف ؟ المهم أن أحس . الفن يخاطب الأحاسيس ، لكن ما هى الأحاسيس ؟ !

أليست هى التحام الجسم بالعقل ؟ !

عام ١٩٤٨ حين كنت تلميذة بالثانوى كتبت موضوعًا إنشائيا تحت عنوان :

« الأحاسيس أكثر ذكاء من العقل » لكن المدرس أعطانى صفرا .

والآن بعد مرور أكثر من خمسة وأربعين عاما أعود وأكتب فوق السبورة فى جامعة ديوك : « الأحاسيس أكثر ذكاء من العقل » .

إنه فصل جديد عن الإبداع ، وكم قتلوا الإبداع بتلك العقلانية الجامدة المنفصلة عن الجسم والنفس .

المرأة وأزمة الفكر العربى

الفكر لا ينمو بغير حرية ، والحرية هى الوجه الآخر من العدالة ، وإذا غابت الحرية غابت العدالة .

ولهذا يضمر الفكر العربى ، وتصيبه أمراض الهزال من شحوب وركود وجحود أو تراجع إلى الوراء .

وإذا غابت الحرية غابت الشجاعة أيضًا .

والفكر الجديد يحتاج إلى شجاعة ، لكن ترديد الأفكار القديمة لا يحتاج إلى شىء ، مجرد القدرة على ترديد الأصوات ، أو تقليد الحركات .

والفرق بين الحيوان والإنسان هو الفرق بين التقليد والتجديد ، بل هناك حيوانات قادرة على التجديد وتغيير أنماط حياتها إذا ما كانت هذه الأنماط تهدد حياتها .

وقد أصبحت حياة الأمة العربية مهددة ، بعض الناس يطلقون على هذا الزمن العربى بالزمن الردئ . والبعض يسمونه زمن الهزيمة أو زمن الاضمحلال والأفول ، فهى ليست هزيمة عسكرية فحسب ، أو انكماش مطرد للأرض العربية ، وتشتيت متزايد للشعوب العربية .

ولكنه أيضًا انكماش مطرد فى الفكر العربى ، وهروب إلى الماضى والأسلاف ، أو الخوف من الجديد والمستقبل .

إنه الخوف . والخوف هو المولود الطبيعى لمجتمعات اللاحرية .

وخوف المرأة أشد من خوف الرجل ، لأن حرياتها أقل ، وحقوقها العامة والخاصة أقل ، وبالتالى فإن عقابها أشد فى القوانين الوضعية ، وفى القوانين الإلهية على السواء ، لأن حقوقها أقل من الرجل فى الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة أيضًا .

وهناك من المفكرين فى بلادنا من يرى أن هذا أمر طبيعى ، .

أو أن الطبيعة لم تمنح المرأة عقل الرجل .

وتصبح « الطبيعة » أو الطبيعة البيولوجية للمرأة هى المسئولة عن الظلم الاجتماعى والسياسى الواقع على النساء ، وبالتالى فلا سبيل للتخلص من هذا الظلم .

وهذا التفسير البيولوجى للظلم الاجتماعى والسياسى لا يقتصر عندهم على المرأة فحسب ، ولكنه يمتد إلى مختلف أشكال الظلم الاجتماعى والسياسى .

فالثراء أو امتلاك الأطيان والأموال ليس حالة اجتماعية يفرضها نظام اجتماعى ، ولكنها حالة بيولوجية أو غريزة من غرائز الإنسان وبالتالى فلا سبيل للتخلص من الملكية .

وبالمثل أيضًا يفسرون « الحرب » تفسيرًا بيولوجيا ، معتبرين أن العدوان » غريزة الإنسان ، وبالتالى فلا سبيل للتخلص من الحروب .

وينتمى إلى هذا الفكر « البيولجى » عدد غير قليل من المفكرين فى بلادنا ، ومنهم من يطلق عليهم « الرواد » أو أصحاب الفكر العقلانى الذين يشجعون التفكير العقلى ، أو النظرة العلمية للأمور ، إلا أن نظرتهم العلمية تعانى ما يطلق عليه الجمود العلمى ، أو الجمود الفلسفى .

وتتسم الثقافة فى بلادنا بصفة عامة بالجمود ، أو اللاحركة ، وبالتالى اللاتغيير ، ويرجع ذلك إلى الخوف من الحركة ، سواء كانت حركة فكرية أو سياسية . لأنها تؤدى غالبا إلى خسائر قد تصل إلى فقدان الوظيفة أو ربما السجن ذاته ، وهى ترجع أيضًا إلى عدم القراءة ، أو عدم الاطلاع على الجديد فى العلوم والاكتفاء بما تم تحصيله فى سنين الدراسة .

ولهذا نرى بعض المفكرين فى بلادنا ثابتين عند فكر أرسطو مثلا أو ديكارت ، أو نيتشة أو هيجل أو سارتر أو ماركس أو غيرهم سواء كانوا من أقطاب الفكر اليمينى أو الفكر اليسارى ، يرددون ما قاله الآخرون دون إضافة ودون تجديد ، يتصورون أن العقل الغربى هو وحده العقل القادر على الخلق ؛ أما العقل العربى فلا دور له إلا النقل .

ويرددون ما قاله الأوربيون عن الشرق والغرب ، من أن الشرق

هو « الروح » والغرب هو العقل . ولا يدرون أنهم بذلك يسلبون الشرق أو يسلبون أنفسهم من العقل . بالإضافة إلى أنهم يسقطون فى تلك « الثنائية » الفكرية والسياسية التى نشأت بنشوء العبودية وقسمت المجتمع البشرى إلى أسياد وعبيد ، وأصبح السيد هو « العقل » ، وهو « الإنسان » ، أما العبيد والنساء فقد أصبحوا الجسد بغير عقل واندرجوا تحت قائمة الحيوانات .

ودخلت هذه الثنائية الفكرية والسياسية فى صلب الفكر الفلسفى والعلمى ، وعن هذا يقول الدكتور زكى نجيب محمود فى مقاله « ثقافة السكون وثنائية الحركة » : المحوران الرئيسيان اللذان يحققان الحياة الكريمة هما أن يكون الناس أحرارًا ، وأن تقوم بينهم عدالة اجتماعية تقضى بالتعاون بين أفراد الجماعة تعاونا لا يهمل معوذا ولا ضعيفا عاجزًا ، لكن تحقيق ذينك المحورين ليس بالأمر اليسير ؛ لأن فى الإنسان من غرائز الحيوان ما يميل به نحو التملك الذى يسلب من الآخرين حرياتهم ، ونحو النهم الذى لا يشبع حتى ولو حرم منه الآخرون ، فتلك عقبة كامنة فى غرائز الإنسان ولابد من تذليلها بالتربية التى تجعل الرجحان فى طبيعة الإنسان للحرية له وللآخرين ، وللعدالة الاجتماعية تقام بينه وبين الآخرين .

ثقافة الصابون

القيم الإيجابية منذ الطفولة

في طفولتي وأنا في السادسة من عمري رأيت أبي يمزق ورقة كتبها أحد جيراننا يتعهد برد مبلغ من المال (أظنه كان عشرة جنيهات) أخذه من أبي على سبيل السلفة . وسمعت أبي يقول لهذا الجار الفقير العجوز : عيب يا عمي ، كلمتك عندي أكبر من أي كمبيالة وأنت جارنا ، وقد أوصانا النبي بسابع جار . ورد الجار قائلا لأبي : ولكني رجل فقير عجوز وقد لا أستطيع أن أرد لك المبلغ أول الشهر ، ولهذا كتبت لك الكمبيالة لأفرض على نفسي السداد في الوقت المحدد . وقال له أبي وهو يربت على كتفه : لا تقلق يا عمي ، إني واثق من أنك سوف ترد المبلغ حين تستطيع ، وإن لم تستطع فما بين الخيرين حساب ، وأنت عندي أهم من أي مال !

وفي طفولتي كنت أسمع أمي تقول لي : اسمعي يا ابنتي الغنى غنى النفس ، فكوني غنية بنفسك وليس بجيبك .

انحفرت هذه القيم في أعماق الوعي واللاوعي منذ طفولتي ، وأصبحت أومن أن قيمة الإنسان تعلو على قيمة المال ، وأن العلاقات الإنسانية تعلو على العقود والأوراق والكمبيالات .

ولم يكن فى طفولتى « تلفزيون » ينقل إلى ثقافة الصابون الشائعة اليوم التى تقلب هذه القيم رأسا على عقب وتضع الدولار أو الدينار فوق الإنسان ، وقطعة من الورق المختومة فوق الصداقة والحب .

حين دخل التليفزيون إلى مصر عام ١٩٦٠ ، كنت قد أصبحت شابة ناضجة محصنة ضد ثقافة الصابون الواردة إلينا من الخارج . وعلى مدى ثلاثين عاما ، ورغم الإعلانات المتكررة فى التلفزيون عن البضائع المستوردة من الغرب ، وغسول الشعر الأمريكى ، لم أستخدم إلا الصابون المصرى الذى أحببته منذ طفولتى ، والذى أشم فى رائحته نكهة أمى حين كانت تضحك ، وصوت أبى حين كان يناديني ، ورائحة النيل حين كنا نتمشى على شاطئه فى قريتى كفر طحلة . وأنا لست ممن يقدسون ما يسمى بالثقافة التقليدية ، ولست ممن يتغاضون عن السلبيات فى القيم التى توارثناها من الماضى ، بل أننى استطعت أن أنقد تراثنا دون خوف ، وأن أسقط منه فى حياتى ما هو متخلف أو عنصرى أو غير إنسانى ، أو تلك القيم التى جاءتنا منذ نشوء العبودية والغزو الاستعمارى وسيطرة الملكية والطبقة المالكة على الأغلبية الساحقة من الشعب ، وسيطرة الذكور على النساء .

لكن فى تراثنا أيضا إيجابيات توارثناها منذ عصور ما قبل العبودية وما قبل الاستعمار ، حين كانت المرأة فى بلادنا إنسانة كاملة الأهلية ، حين ارتفعت قيمة الإنسان على قيمة المال والأشياء ، وكانت علاقات

الصداقة والحب والتعاون تعلو على علاقات الحرب والقتال والجشع والطمع من أجل الاستعمار وتراكم رءوس الأموال .

لكن ثقافة الصابون خلال النصف الأخير من هذا القرن ، وعبر هذا الجهاز الإعلامى الثقافى الخطير استطاعت أن تشوه الثقافات والقيم الإيجابية ، وتبرز على سطح الموروثات السلبية ، وتضيف إليها القيم الجديدة غير الإنسانية القائمة على عبادة المال والسلاح وتشجيع الاستهلاك لدى الطبقات الأدنى المسحوقة .

استهلاك العقل

جهاز خطير فى العالم أصبح يهدد عقل الإنسان وقدراته الإبداعية الخلاقة ، جهاز يستهلك عقول البشر ويصيبها بالشلل والتوقف عن النمو ، جهاز يطلق عليه اسم « التليفزيون » ، جذاب شديد الجاذبية للأغلبية الساحقة من النساء والرجال والشباب والأطفال وخاصة هؤلاء الذين لا يقرءون ، لأنهم لا يعرفون القراءة ، أو لا يقدرون على شراء الكتب ، أو لا يجدون الوقت أو الجهد للقراءة ، مجهدون طوال النهار فى العمل المضنى من أجل لقمة العيش وتوفير ضرورات الحياة وليس أمامهم وسيلة للترفيه أو التسلية آخر النهار أو أول الليل إلا هذا الجهاز الذى ينقل إليهم وهم راقدون فى غرف النوم مسلسلات وأفلام وحلقات تمثيلية من وراء البحار والمحيطات من الولايات المتحدة

الأمريكية أو تلك البلاد البعيدة ، التى تسمى بالعالم الجديد ، والتى سيطرت على العالم بالدولار وتكنولوجيا السلاح والإعلام .

استطعت من خلال رحلاتى المتعددة إلى بلاد كثيرة فى الغرب والشرق أو الشمال والجنوب أن أدرك خطورة جهاز التليفزيون وغيره من أجهزة الإعلام على عقول الناس .

سيطرت الثقافة الأمريكية السطحية السريعة من خلال الشاشة الصغيرة والأجهزة الالكترونية الأخرى على الثقافات المحلية فى أوروبا وآسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية وأستراليا .

ويزداد هذا الأثر فى بلادنا العربية ، وخاصة البلاد التى ترتبط سياسيا واقتصاديا بالولايات المتحدة الأمريكية .

وقد أصبح معروفا أن السيطرة السياسية من أجل الاستغلال الاقتصادى لا تكون بغير سيطرة على العقول من خلال الإعلام ، لقد حل الإعلام محل السلاح .

لكن أزمة الخليج العربى التى بدأت أوائل أغسطس ١٩٩٠ وتبعها نقل القوات الأمريكية المسلحة إلى الخليج العربى والقوات المتعددة الجنسيات فرنسية وبريطانية وغيرها أثبتت أن الاستعمار الغربى الاقتصادى لثروات العالم الثالث (ومنها البترول العربى) لا يزال يحتاج إلى السلاح العسكرى ولا يكفيه سلاح الإعلام ، وإن كان سلاح الإعلام يخدم على الدوام مصالح الغرب مدعما النظام الاقتصادى

العالمى بنظام إعلامى عالمى قائم على الاستغلال والتجهيل لأغلب سكان الكرة الأرضية ، الذين لا يملكون إلا القليل من تكنولوجيا الإعلام أو السلاح العسكرى .

يلعب الإعلام والثقافة العالمية السطحية المسماة Soap Culture دورا حاسما فى تجهيل الشعوب بحقوقها ، أو غسيل مخها بالصابون ، ليصبح مخا أملس مثل مخ الأرنب يفقد قدراته على التفكير أو التحليل أو الإبداع والخلق ، يستهلك ما يعطى له غير قادر على إنتاج الفكر ، يردد ما يقدم له مثل الببغاء ، يستسلم بلا مقاومة لهذه المعلومات والثقافة التى تسقى له بالملعقة ، ثقافة مرة كالعلقم ، معادية للإنسان فى جوهرها ، لكنها تزين نفسها بالقشور البراقة ، والألوان الزاهية ، وبعض المشهيات الجنسية التى تحول فيها جسد المرأة إلى أداة للإعلان والإغراء الجنسى .

الجنس

يلعب « الجنس » الرخيص غير الإنسانى القائم على التجارة والربح دورا كبيرا فى ثقافة الصابون . يدرك خبراء هذه الثقافة فى الغرب أن الملايين من الشباب فى ذلك العالم المسمى بالعالم الثالث ، أو فقراء العالم محرومون من ضرورات الحياة المادية والمعنوية ومنها « الجنس » والحرية أو الديموقراطية . يقدمون لهم هذا « الجنس » على شكل أحلام مستحيلة أو مخدرات تجعل العقل يعيش فى الوهم وليس الحقيقة ،

أو حرية فردية زائفة تشجع فيهم الأثرة والأنانية على العلاقات الإنسانية والتعاون فيما بينهم والحب الصحيح القائم على التبادل المتساوى أخذ وعطاء .

الجريمة والعنف

وتلعب « الجريمة » دورا كبيرا فى ثقافة الصابون . يدرك خبراء هذه الثقافة فى الغرب أن « العنف » أو « الاغتصاب » أو « القتل » الذى يراه الشباب فوق الشاشة ينفس عن الغضب الكامن فى أعماقهم بسبب الظلم الواقع عليهم ، ويعطيهم إحساسا مزيفا بالمشاركة فى هذا العنف عن طريق الانفعال .

يصبح الانفعال بديلا عن الفعل ، ويعيش الشباب حالة من اللافعل والسلبية رغم إحساسهم الموهوم بالفعل .

الإعلانات والاستهلاك - وطمس الإيجابيات

من أهم مقومات ثقافة الصابون تلك الإعلانات المتكررة الجذابة عن البضائع الكمالية المستوردة من الغرب التى تؤجج خيال رجال ونساء محرومين من ضروريات الحياة ، وتدفعهم إلى شراء مالا يحتاجون إليه ، تخلق عندهم حاجات وهمية لأشياء غير ضرورية ، مثلا فى قريتى كفر طحلة على شاطئ النيل فى الدلتا ، رأيت امرأة فلاحة تحمل فوق رأسها غسالة كهربية أمريكية وتسير بها لتغسل ملابسها ، ورأيت شابه ترتدى رموشا صناعية وتصبغ شفتيها

« بروج » أحمر ، فى الوقت الذى ترتدى فيه حجاجا يخفى شعرها عن أعين الرجال منعا للفتنة ! لقد شاهدت هذه المرأة فى التليفزيون إعلانا أمريكيا عن رموش صناعية وروج أحمر للشفتين ، وشاهدت أيضا أحد المشايخ الإسلاميين ينصح النساء المسلمات بارتداء الحجاب ، واستطاعت أن تطيع الاثنين دون أن تشعر بالتناقض .

رأيتها تمشى بخطوة تقلد بها إحدى بطلات مسلسل دالاس وتحلم بالزواج من رجل ثرى يملك بئر بترول فى الخليج العربى .

إن ثقافة الصابون السائدة تخلق هذا النمط من التفكير السطحى القائم على الرغبة فى الاقتناء والامتلاك والخضوع لسطوة المال ، وعدم الوعى بالتناقضات الصارخة ، والفصل بين الظواهر وأسبابها .

يصبح العقل مثل العين العمياء لا يرى التناقض الواضح وضوح الشمس . وهذه هى عملية التجهيل العالمية التى تبثها وسائل الإعلام وثقافة الصابون الدولية ، ثقافة مزدوجة تناقضية تخدم النظام الطبقى الأبوى المزدوج المتناقض ، يعرى جسد المرأة باسم القيم التجارية وترويج البضائع ، ويغطى رأسها باسم القيم الأخلاقية والدينية .

يلهب خيال الشباب بمشاهد الجنس والجريمة والاغتصاب فيصرفه عن التفكير فى مشاكل البطالة والفقر ، ويشجعه على الحياة الوهمية فى ضباب المخدرات ، يشتت ذهنه بثقافة استهلاكية رخيصة ،

يعطيه إحساس وهمى بأن الحياة تخلو من المشاكل يضيع وقته بالساعات مبحلقا فى الشاشة المضيئة .

تلعب ثقافة الصابون دورا فى طمس الإيجابيات ، والحكم الموروثة من التراث الشعبى وتفرض على الناس قيما مصطنعة مشوهة لبيئتهم وحضارتهم الأصلية .

كان الرقص فى قريتى كفر طحلة على إيقاع الطبلة والرق وغناء النساء بتلك الألحان الشعبية نوعا من الجمال والفن العريق الممتد فى التاريخ المصرى القديم لكن ثقافة الصابون الأمريكية عبر التليفزيون شوهت هذا الفن الفولكورى الشعبى الجميل ومسخته ، فلم نعد نرى رقصا وغناء شعبيا حقيقيا وإنما مزيج مختلط غير أصيل وغير أخاذ ، رقص ركيك وغناء أشد ركاكة ، مثل فلاح مصرى ينسى لغته العربية الأصيلة ويتكلم بلغة إنجليزية ركيكة .

كانت العروس فى القرى فى بلادنا ترتدى جلبابا من القطن المصرى الناعم الجميل المزين بالألوان البديعة الزاهية وتركب جوادا فإذا بها اليوم تركب عربة نقل وترتدى ثوبا من النايلون المستورد الذى يجعلها تنصب عرقا ، وترتدى حذاء له كعب عال رفيع يدخل فى حفرات الشوارع والحوارى ويجعل خطواتها بطيئة متعرجة .

امتلأت القرى المصرية بضجيج الميكروفونات وأجهزة التليفزيون التى تذيع الأغانى التافهة والألحان السطحية والأفلام والمسلسلات

الأمريكية من نوع دالاس وفالكون كريست ونشرات الأخبار التى تنقل عن وكالات الأنباء العالمية وتشوة الحقائق السياسية وتبترها بما يدعم مصالح الغرب الاقتصادية ، وتفصل بين الفقر وأسبابه الكامنة فى سوء توزيع الثروة محليا وعالميا .

كنت ألجأ إلى قريتى الهادئة لأكتب وأفكر بعيدا عن ثقافة الصابون التى تنتشر فى العاصمة فإذا بالقرية أيضا تصبح ضحية هذه الثقافة الصاخبة الضحلة بعد دخول أجهزة التليفزيون والفيديو إلى القرى .

تتجسد خطورة ثقافة الصابون فى أنها تحاول طمس الإيجابيات العريقة فى الثقافات المحلية الأصلية ، فى الوقت الذى تشجع فيه التقاليد البالية التى تؤخر الشعوب ، إنها تقضى على الأصالة المناسبة لكل شعب فى الوقت الذى تحافظ فيه على التقاليد المزدوجة والقيم المتناقضة النابعة من العبودية القديمة ، وخضوع المرأة للرجل وارتفاع قيمة المال على قيمة الإنسان ، وتبرير الاعتداء والحرب ، واخفاء الظلم الكامن فى النظام المحلى والعالمى . إنها ثقافة مزدوجة وسطحية فى آن واحد تسمى نفسها ثقافة مع أنها محاولة للتجهيل وإبطال عمل العقل .

تصبح ثقافة الصابون عبر أجهزة الإعلام المركزية هى الوسيلة الوحيدة للثقافة فى البلاد ، يتحول أغلب الناس إلى مستهلكين لهذه الثقافة لا يشاركون فى إنتاجها .. يجلسون أمام جهاز التليفزيون وهم بلا حول ولا قوة . يشعرون أنهم مجرد أجهزة استقبال ، ولا حيلة

لهم إزاء هذا الأخطبوط العالمى الذى يدخل إلى غرف نومهم ويستولى على عقولهم ، دون أن يكون لديهم أى وسيلة للمقاومة أو المشاركة .

خلقت ثقافة الصابون جماهير من النساء والرجال سلبية عاجزة عن تذوق الفن الرفيع والأدب العميق ، ولهذا انعزل المفكرون والأدباء والأديبات ممن ينشدون العمق والجودة ، وساد الكتاب والكاتبات الذين ينشدون السرعة والسطحية والكسب السريع .

تلعب ثقافة الصابون فى بلادنا دورا فى أن تقلب الحقائق رأسا على عقب فلا تعرف الشعوب ماذا تفعل إزاء ما يواجهها من أزمات حادة . تستسلم بلا مقاومة . تحملق بالساعات فى الشاشة المضيئة بأفواه مفتوحة وعيون ناعسة وعقول متوقفة عن العمل ثم ينامون برءوس مهدودة تعانى الصداع والإحباط واليأس .

ويصبح العدو داخل الإنسان ذاته . داخل عقل الإنسان ذاته . يصبح الإنسان عدو نفسه فلا يعرف حقوقه ولا يعرف كيف يتمرد وضد من ؟

ولهذا ليس غريبا أن تنتشر التيارات السياسية الدينية المتطرفة سواء كانت إسلامية أو مسيحية أو يهودية أو بوذية أو هندوكية .. الخ .

وبمثل ما تلعب ثقافة الصابون بورقة السياسة تلعب أيضا بورقة الدين ، ولا تعدم أى وسيلة لغسل مخ البشر من أى فكر منطقى يبحث

عن الأسباب الحقيقية لأى أزمة ، دون أن يلقى بالمسئولية على اللّه أو الشيطان .

فى هذه الأيام الأخيرة ومنذ احتشاد القوات العسكرية الأمريكية (والمتعددة الجنسية) على أرض السعودية تقوم ثقافة الصابون والإعلام التابع لها بإيهام الشعوب العربية أن هذه القوات الأجنبية ، جاءت من أجل حمايتها ومن أجل تأكيد الديموقراطية وحقوق الإنسان . وهكذا تعيش الشعوب العربية الوهم بأن أعداءها هم حماتها . وحين يصبح العدو هو الحامى يتأكد معنى الاستعمار ، ألم تحتل بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ تحت اسم الحماية البريطانية ؟ !

المرأة والاحساس بالغربة

الإحساس بالغربة عن هذا العالم الذى نعيش فيه لا يخص المرأة فى بلادنا العربية فقط ، إنه إحساس لا يمكن أن تنجو منه امرأة تولد فى أى مكان فوق هذه الكرة الأرضية . (والرجل أيضا) .

وقد سافرت كثيرا وصادقت نساء ورجالاً من جميع البلاد فى القارات الخمس ، وأدركت أن الغربة إحساس عام فى عالمنا هذا .

حين ولدت فى قرية مصرية عام ١٩٣١ فتح عينى على عالم غريب وجه أمى يلوح أمامى ووجه جدتى (أم أمى) وجدتى (أم أبى) وبعض وجوه العمات والخالات ، لكنها وجوه فقط ، والأصوات التى أسمعها أصوات الرجال ، الرجال يتكلمون دائمًا وبصوت عال ، والنساء غالبًا صامتات يستمعن إلى الرجال وفى عيونهن بريق منطفئ . يشبه الألم أو الحزن العميق الممتد عبر السنين .

لم أكن أعرف الكلام بعد ، ولا أعرف كلمة ذكر ، أو أنثى .

لكن من عيون أمى وجدتى عرفت أننى مثلهن ، وأننى أنتمى إلى جنس هامشى ، ليس له قيمة الجنس الآخر ، الذى يسمونه « الذكور » .

حتى فى البيت ويسميه جدى (والد أمى) مملكة المرأة أرى أن جدى هو رئيس هذا البيت ، وصوته أعلى الأصوات ، وزوجته ، أى جدتى ، صامتة ، ترتدى السواد ، حزينة طول الوقت .

قبل أن أعرف الفرق بين الأنثى والذكر شعرت بالغربة ، وأننى أعيش فى عالم تنكمش فيه الإناث داخل ملابسهن ، وداخل المطبخ ، أو داخل غرفة النوم .

ويخرج جدى إلى العالم الخارجى ، ويخرج أبى . يخرج الرجال من البيت إلى عالم آخر واسع لا تعرفه أمى ولا تعرفه جدتى (أم أمى) ولا خالاتى شقيقات أمى ، إلا شقيقة واحدة اسمها « فهيمة » كانت تخرج من البيت إلى المدرسة .

خالتى فهيمة كانت تشتغل معلمة ، فى مدرسة ابتدائية للبنات . أخذتنى مرة معها إلى المدرسة وأنا طفلة فى الخامسة ، رأيتها تمشى فى الشارع بسرعة وهى مطرقة إلى الأرض . تقبض على يدى بيدها وتكاد تجرى ، كأنما يطاردها أحد ، الشارع مزدحم بالناس . كلهم رجال ، إلا امرأة تشبه خالتى تسرع هى الأخرى وعيناها إلى أسفل . وامرأة فلاحة ترتدى جلبابًا أسود وطرحة حول رأسها تتلفت حولها فى ذهول كأنما هى فى عالم غريب ، تشبه جدتى الفلاحة (أم أبى) .

عيون الرجال كانت تنظر إلى خالتى ، وهى تخفى صدرها بحقيبة يدها . كأنما العيون قادرة على اختراق ملابسها ، وكمسارى الترام

رمق المرأة الفلاحة بإزدراء ، حين فكت بأصابعها عقدة المنديل وأخرجت الملاليم وبدأت تعد له ثمن التذكرة بأصابع سمراء مشققة أظافرها سوداء .

لم تكن خالتى فهيمة فقيرة مثل هذه المرأة ، كانت متعلمة تعرف القراءة والكتابة ، وتمسك حقيبة جلدية صغيرة ، تخرج منها ثمن التذكرة بأصبع ناعمة بيضاء البشرة أظافرها مقصوصة بعناية ، وهى تجلس فى الترام داخل غرفة الحريم ، ترفع عينيها وتنظر إلى وجوه النساء من حولها . تلتقى عيناها بعينى المرأة الفلاحة . ترمقها بازدراء ، تنكمش الفلاحة داخل جلبابها الأسود . تلف طرحتها السوداء حول رأسها وتنظر إلى السلة الكبيرة بين ساقيها ، تغطيها فوطة سمراء تعلوها بقع الطين ، والزيت أو السمن البلدى .

حين أتحدث عن إحساس المرأة بالغربة فى عالمنا هذا لا يمكن أن أنسى تلك المشاهد فى طفولتى ، كلما أتقدم فى العمر تزداد غربتى ، اكتشفت أننى أزداد وحدة وغربة عن النساء والرجال معًا .

إنه عالم عبودى عنصرى شديد التفرقة بين الأغنياء والفقراء ، وبين الرجال والنساء ، وبين أصحاب الوجوه البيضاء وأصحاب البشرة السمراء أو السوداء .

ويتضاعف إحساسى بالغربة حين أجد نفسى فى حفل كبير ، ترتدى فيه النساء الملابس الغالية والفورير والجواهر ، وأنا أرتدى

ملابسى البسيطة العادية ،بلا خواتم فى يدى ، ولا أساور ، ولا مكياج على وجهى ، وشعرى مرسل بطريقة عادية ، لا أذهب أبدا إلى ذلك « الكوافير » وحذائى عليه غبار الطريق .

وأشعر بغربة مضاعفة حين أجد نفسى فى اجتماع رسمى من مستوى عال ، يجلس إلى جوارى رجال من الطبقة الحاكمة ، ربما وزراء ، رؤساء شركات عربية أو أجنبية ، أصحاب مناصب هامة فى جهة ما ، ربما الأمم المتحدة ، أو ما شابه ، أدباء ، صحفيون ، أشعر بالغربة حين أسمعهم يتكلمون ، يستخدمون لغة عربية ، يتكلمون لغة واحدة ، اصطلاحات ، إكليشهات . يرتدون ربطة عنق شكلها واحد ، حركة أعناقهم واحدة . والكتفان داخل البدلة المحشوة بالقطن ربما أو قطعة من الكوتش فوق كل كتف ليصبح الكتف عريضًا ، أعرض مما هو ، أتلفت حولى فى دهشة . فى غربة .

كنت أبحث فى الكتب عن معنى الغربة . معظم الكتب بأقلام الرجال . انشغلوا بغربة الرجل من المحكومين ، من الفقراء ، أو العمال الأجراء ، داخل نظام يسرق عرقهم ، وجهدهم ، يحولهم إلى آلة عمل فى الحقل أو المصنع أو المكتب ، تحدث الغربة بين الرجل وما تصنعه يديه . ينظر إلى ما ينتجه دون أن يعرف إلى أين يذهب . كأنما هو ترس فى آلة ضخمة ، لا يعرف كيف تسير الآلة ، ولا كيف يسير الترس ، كل شىء من حوله تحركه قوى خفية ، تشبه القوى الغيبية ، الإلهية ، لا يراها ، ولا يمكن له تصورها إلا فى الحلم على شكل

كابوس ، حتى فى الحلم يشعر بالغربة عن أحلامه ، ويصحو من النوم يمشى إلى عمله كأنما يمشى فى النوم ، يعرف الطريق من البيت إلى العمل بحكم العادة ، كالحيوان المستأنس ، كلب أو قط أو حمار يعرف الطريق من الدار إلى الحقل ثم يعود فى الطريق نفسه يجر جسده كأنما بحبل .

قرأت الكثير عن غربة الرجل المأجور فى عالم طبقى لا يعرف قيمة الرجل إلا بالمال أو سلطة الحكم .

لكننى لم أقرأ إلا نادرًا عن غربة المرأة ، بعد أن تعلمت القراءة وعرفت الطريق إلى المكتبات العامة ، كنت قبل ذلك حين أشعر بالغربة أبحث فى عيون البنات من حولى عن واحدة مثلى تشعر بالغربة .

فى عيونهن كنت أرى الغربة كالسحابة الرمادية تروح وتجىء فوق « النني » ، مثل علامة الاستفهام الأبدية بلا جواب : لماذا خلقنى الله أنثى فى عالم الذكور ؟

حين أعود بذاكرتى إلى الوراء ، أرى نفسى طفلة واسعة العينين ، فى اتساعهما مساحة كبيرة تتسع للغربة عن العالم الذى ولدت فيه ، وكلمة « أنثى » حين كنت أسمعها تلامس أذنى بكثافة مادية كأنما هى بصقة فى وجهى ، والعيون من حولى يغيب منها الفرح فى حضورى ، والعكس صحيح فى حالة أخى ، ذلك الطفل الذكر ، يكبرنى بعام واحد ، وفى حضوره تمتلئ العيون بالفرح .

من بين قضبان نافذة المطبخ أسمع أصوات الأطفال يلعبون ، يضحكون ، ويصرخون من الفرح ، يعلو صوت أخى بين أصواتهم ، وضحكته تملأ الكون ، وأنا واقفة أمام النار أطبخ له الطعام . يتضاعف الإحساس بالظلم ومعه يتضاعف الإحساس بالغربة .

أدركت منذ الطفولة العلاقة بين الظلم والإحساس بالغربة . وبدأ الصراع ، والطريق الطويل الشاق اللانهائى لإزالة الظلم من أجل أن تزول الغربة .

كأنما كنت أصارع الكون لأصبح جزءًا منه . لكن الكون لم يكن يرحب بى . وحين أمشى فى الشارع يقذفنى الصبيان بالطوب ، أو عيون الرجال ترسل نحوى نظرات مثل أسياخ الحديد ، وفى الترام أو الأوتوبيس أجدنى مثل قطعة لحم بين أجساد الذكور . وفى نهاية العام الدراسى لا يفرح أحد بنجاحى ، وإذا فشلت فى طبخ الملوخية أو البامية أنبنى الجميع .

داخل البيت أشعر بالغربة ، وبين أفراد أسرتى ، وفى الشارع ، وفى المدرسة ، وفى الجامعة ، وفى أى مكان فى هذا العالم أذهب إليه ، تصاحبنى الغربة كأنما هى عضو فى جسمى .

أدركت حين كبرت ووعيت أن الغربة إحساس شائع بين الرجال أيضا ، لكنه عند النساء أشد . تزداد الغربة بازدياد الفقر أو الانتماء إلى الطبقة الأدنى .

وحين سافرت خارج مصر إلى أوروبا ، أزدادت غربتى . ما أن أتكلم اللغة العربية حتى ترمقنى العيون بنظرة غريبة . وبشرتى السمراء تزداد سمرة وغربة بين الوجوه البيضاء . كأنما أنتمى إلى عالم آخر ، يسمونه العالم الثالث . كلمة « الثالث » تخرج من بين شفاههم لها كثافة مادية .تنقلب الشفة السفلى إلى أسفل ، كأنما جئت من عالم سفلى .

بمرور السنين أصبح لى أصدقاء وصديقات من مختلف البلاد ، سود وبيض ، نساء ورجال ، من مختلف المهن والثقافات ، ورغم الاختلاف لا أشعر بالغربة بينهم أو بينهن ، لأن كلا منا يحترم اختلاف الآخر ، يتعامل كل منا مع الآخر على قدم المساواة .

نعم ، إنها المساواة أو العدل ، الذى تزول معه الغربة ، وأحس أننى إنسانة مثل الآخرين ، لا أحد يسود على الآخر . ليس هناك أعلى وأدنى .

لكن هذا العدل فى عالمنا المعاصر قليل ونادر ندرة الصداقة الحقيقية ، أو الحب الحقيقى .

فى علاقة الحب الحقيقى تتلاشى الغربة – يزول الإحساس بالظلم حتى آخر قطرة . يفتح الواحد منا أو الواحدة منا عينيها فترى الله على شكل العدل ، يحدث التلاحم بينها وبين الله . ويذوب الإحساس بالغربة حتى آخر قطرة .

جدتي الفلاحة (أم أبي) كانت أمية لا تعرف القراءة ، لم تقرأ القرآن .لكنها كانت تقول : ربنا هو العدل عرفوه بالعقل .

واليوم بعد أن بلغت الستين من العمر تعود إلى أحاسيس الطفولة ، ويزداد وعيي بغياب العدل .

وتزداد غربتي عن العالم . أرى وجه جورج بوش على شاشة التليفزيون في غرفة نومي يتحدث عن نظام عالمي جديد . أصابعه ملوثة بدماء نصف مليون في حرب الخليج . يستولي على بترول العرب . يتحدث عن حقوق الإنسان .

يرن صوته غريبا ، وفوق الشاشة يصبح له وجهان . أربعة عيون ، وأنف مزدوج ، وفم مزدوج ، وكلام مزدوج .

تزداد غربتي في ذلك العالم ذي النظام الجديد . المسافة بين البيت الأبيض في واشنطن تتلاشى فوق شاشة التليفزيون . يصبح جورج بوش في غرفة نومي بالقاهرة كل يوم .

وأدوس بإصبعي على الزر لأطفئ الشاشة ، ليزول الوجه ، ويزول الصوت ، وتزول غربتي . بلا جدوى . إذا انطفأت الشاشة في بيتي فهي مضاءة في بيت الجيران ، والصوت يأتيني عبر الجدران . الصوت يأتيني من الشارع ، من كل مكان — ومهما سددت أذني يأتيني الصوت عبر الأثير ، والعيون الإلكترونية تنقل الصوت والصورة عبر آلاف الأميال من الشمال إلى الجنوب .

إنه التليفزيون والاقمار الصناعية ، وتكنولوجيا الاتصال والبث الإعلامى ، يبثون فى آذاننا الكذبة وراء الكذبة . من كثرة التكرار تصبح حقيقة .

إنهم يزيفون الوعى ، واللاوعى . أقاوم الزيف . أواصل الصراع ، والطريق الشاق اللانهائى للبحث عن الحقيقة .تضيع الحقيقة مثل نقطة ضوء فى ظلام دامس . مثل لحظة حب فى عالم ملئ بالكراهية ، مثل قطرة عدل فى بحر من الظلم .

وفى مثل هذا العالم من ذا الذى لا يشعر بالغربة ؟ امرأة كانت أو رجلا ؟ عربية كانت أو غير عربية ؟

لم يعد العالم كما كان كبيرا .أصبح بحكم سرعة الاتصال صغيرًا مثل القرية الواحدة . يحكمها شيخ القبيلة ، بالسلاح النووى والقتل الجماعى ، يجلس على العرش مثل الإله ، يطلب الخضوع من الجميع . ومَن يرفع رأسه يقطع على الفور .

نظام عالمى جديد ، أبوى طبقى ، تحكمه قوى عظمى واحدة ، عسكرية نووية ، ذكورية ، ترفع فوق الرأس النووى كتاب الله ، تقتل باسم الرب ، وتستولى على أموال الغير باسم الحق وتقهر النساء باسم الحب ، وتكسب الملايين من تجارة السلاح على حين يموت الأطفال جوعا .

فى عالم كهذا لا يمكن أن أكتب عن الغربة التى أحسها كامرأة

عربية دون أن أكشف عن الروابط الخفية والمعلنة التى تربط الحكام فى جميع أنحاء العالم شرقًا وغربًا ، وشمالاً وجنوبًا . فلم يعد العالم مقسما إلى شمال وجنوب أو شرق وغرب .

أصبح العالم مقسما إلى حكام ومحكومين .. الحكام أغلبهم ذكور وقلة من الإناث والمحكومون أغلبهم نساء وشعوب مقهورة من النساء والرجال .

يخربون العقل الظاهر والباطن . يمتلئ الكون بإحساس ثقيل كالهواء الراكد . تغوص الروح فى قاع الجسد حتى بطن القدمين .

فى مثل هذا المناخ تزحف الغربة مثل الماء البارد يسكب فوق الرأس حتى أخمص القدم فى الشتاء الصاقع .

وتظل غربة المرأة أشد . لأنها فوق كل ذلك « أنثى » . وليس الأنثى كالذكر . وللرجال السيادة وللمرأة الخضوع . فما بال الأمر إذا كانت فقيرة ، بلا حب ولا جاه ولا مال ، سمراء الوجه ، مشققه اليدين ، لا تعرف القراءة ولا الكتابة مثل ابنة عمتى ؟

منذ أيام قليلة ذهبت إلى قريتى كفر طحلة فى وسط دلتا النيل ، وجلست إلى جوار ابنه عمتى ، فى صحن الدار كان هناك جهاز التليفزيون يتربع على منضدة خشبية كالحة . وعلى الشاشة رأيت وجه جورج بوش .

رفعت زينب وجهها إلى الشاشة ، شوحت بيدها المعروقة السمراء

فى الهواء وتمتمت بكلمات مبتورة ، ومن باب الزريبة المفتوحة كانت البقرة تطل برأسها وتتابع الصورة فوق الشاشة ، تصدر عنها أصوات مبهمة غير مفهومة .

ثم اختفت صورة جورج بوش . ورأينا امرأة نصف عارية ، تتراقص فى إعلان تجارى عن « شامبو » أمريكى ، وهزت البقرة رأسها علامة النفى ، أو عدم الفهم . وفى عينيها المتسعتين رأيت الغربة كالسحابة الرمادية .

واكتشفت الترابط بين الإحساس بالغربة وعدم الفهم .

لابد أن الإحساس بالغربة يشمل الجميع المرأة والرجل الإنسان والحيوان . فالحيوان أيضا يشعر بالغربة حين يشعر بالظلم .

وفى عيون البقرة المتسعة رأيت الغربة مرسومة داخل « النني » . لكن غربة المرأة أشد ، لأن الإنسان يدرك الغربة أكثر من الحيوان ، ولأن المرأة تباع فى سوق الزواج كما تباع البقرة . وداخل الزواج تفقد المرأة ذاتها تصبح زوجة فلان ، أو أم فلان ، وأولادها وبناتها يحملون اسم رجل آخر هو زوجها ، له الحق فى أن يطلقها بكلمة تخرج من بين شفتيه أو يتزوج عليها امرأة أخرى أصغر سنًا أو أكثر مالاً حق مطلق يضمنه له القانون والشرع .

فى ظل هذا القانون تعيش المرأة إحساس الغربة المزدوج . داخل البيت وخارجه فى العالم الذكورى الممدود شرقًا وغربًا .

كيف ولماذا يحدث ذلك ؟

ألا ترون معى أننا أصبحنا نعود إلى الوراء إلى حد أننا أصبحنا نناقش البديهيات ؛ هل ركوب السيارة حرام وركوب الجمل حلال ؟ هل العزف على الجيتار حرام والعزف على العود حلال ؟ هل وجه المرأة حرام أم حلال .. إلخ ؟

وهذه ظاهرة تنذر بالخطر ، لأنها تستنزف عقول الناس فى مناقشة بديهيات إنسانية انتهى التاريخ البشرى منها وتجاوزها منذ قرون ، وأخطر مافيها أننا بعد كل معركة من هذه المعارك نتقهقر إلى الوراء بعد عدد من التنازلات . هؤلاء الذين كانوا ضد حجاب المرأة أصبحوا اليوم مع الحجاب ضد النقاب . وهؤلاء الذين كانوا مع الاختلاط فى الجامعة أصبحوا اليوم ضد الاختلاط . وهؤلاء الذين كانوا مع الموسيقى والتمثيل أصبحوا اليوم ضد التمثيل لكنهم مع الموسيقى والذين كانوا مع الموسيقى أصبحوا اليوم مع الموسيقى الشرقية فقط والدق على الطبلة والرق وليسوا مع الموسيقى المعزوفة بآلات أجنبية .

أما هؤلاء الذين كانوا مع الرقص فقد سكتوا تماما أو اعتبروا الرقص

من الرذائل ، ثم بدأ النقاش حول الفن والخلاعة ، وأصبح كل واحد يدافع عن نفسه ويقول : إنه مع الفن الجاد وليس الفن الخليع . كأننا جميعا قد أصبنا بتعطيل مفاجئ فى حواسنا وملكاتنا العقلية والفنية ، ولم نعد قادرين على التمييز بين الفن والخلاعة . وهذه بديهية من البديهيات ، فأنا وغيرى نختار ما نقرؤه وما نسمعه وما نشاهده ، وهذا الاختيار حق من حقوق الإنسان الأساسية . مثلا قد يحب بعض الناس مشاهدة مسرحية لعادل إمام على القناة الثانية بالتليفزيون ، وقد يفضل بعض الناس مشاهدة مسرحية .. عن مدام كيورى على القناة الأولى ، أو قد يفضلون سماع حديث دينى من أحد المشايخ ، أو يسمعون برنامجًا موسيقيًّا أو يشهدون إحدى رقصات الباليه ، أو إحدى الرقصات المحلية على دقات الطبول ، أو مشهد زار فى قرية وهكذا .. فلماذا لاتترك الفنون لأذواق الناس المختلفة ؟ ولماذا يفرضون علينا نوعا معينا من العزف ؟ أو لونا واحدا من الفن ؟ !

وقد احترمت المحكمة فى مصر « الحرية الشخصية » بالنسبة لزى طالبات الجامعة حسب الدستور فلماذا لا تُحترم هذه الحرية الشخصية فى الأشياء الأخرى بما فيها الحرية الشخصية فى اختيار ما أشاء من الفنون . أم أن الحرية الشخصية قاصرة فقط على زى الطالبة فى الجامعة ، وقاصرة فقط على زى معين للطالبة وهو النقابُ ؟ إن الحرية

الشخصية فى الدستور تشمل حرية العقل والفكر قبل حرية الأزياء ، ويتساوى المواطنون والمواطنات أمام الدستور المصرى بصرف النظر عن اللون أو العرق أو الجنس أو العقيدة ، ويكفل الإسلام حرية العقيدة فما بال حرية تذوق الفنون ؟ !

جميع رجال القانون فى مصر والقضاة فى المحاكم ونقابة المحامين ونادى القضاة وغيرها من المؤسسات القانونية والدستورية مطالبون فى بلادنا بأن يقولوا رأيهم فى هؤلاء الذين يحرّمون الموسيقى والتمثيل والفنون .

لا يكفى أن يكتب بعض الصحفيين والكتاب آراءهم ثم ينسى الناس الحادثة ، لتأتى حادثة أخرى أشد . إن الهيئات القانونية الرسمية والشعبية مطالبة بأن تدافع عن الدستور وحقوق الإنسان والحرية الشخصية بمثل مادافعت تلك المحكمة عن حرية الطالبة الشخصية فى إرتداء ماتشاء ، وإن الجمعيات الثقافية والأندية والهيئات مطالبة اليوم بأن تخرج عن صمتها وسكوتها الغريب إزاء ما يحدث من تخريب للحرية الأساسية للإنسان .

وإذا كانت أحزاب المعارضة فىمصر تناضل من أجل الحريات الأساسية وضد القوانين المقيدة للحريات ومنها قانون الطوارئ ، فلماذا تسكت هذه الأحزاب عن الدفاع عن حرية العقل فى اختيار ما يشاء

من الفنون ؟ ! ، أو على الأقل لماذا يكون صوتها خافتا أو مترددا أو غامضًا .

وإذا ضُرب الإنسان بالجنازير الحديدية لمجرد أنه يعزف الموسيقى فماذا يبقى من حرية ومن كرامة للإنسان ؟ !

وهل تصل بنا الأمور إلى حد أن يصبح عرض مسرحية لعادل إمام فى قرية خطرا على حياته يتحداه ويعلن فى المصور أنه مسافر لعرض المسرحية وجمهوره سوف يحميه ؟ !

لا شك أننا نحيى شجاعة عادل إمام ونود أن ينزل الفنانون والفنانات إلى القرى ويعرضون أعمالهم . ونود أيضا أن ينزل الشعراء والكتاب والأدباء ليتحدثوا مع الناس فى القرى فى ندوات لم تعد الكتابة فى الصحف وحدها تكفى الآن ، وكثير من الناس لا يقرءون ، ولكنهم يسمعون أو يشاهدون التليفزيون . والتليفزيون جهاز هام فلماذا لا يفتح أبوابه للكتاب والصحفيين من ذوى الفكر المتقدم ، لا يكفى للدولة أن تهتم بالدعاة الدينيين فحسب ، فهناك موضوعات غير دينية .. علوم وفنون أخرى لا يعرف عنها الدعاة الدينيون شيئا .

وفيما يخص الفن مثلا أو الموسيقى فهل تدخل فى أمور الدين ؟ ! وهل نحتاج إلى فتوى من مفتى الديار ليقول لنا هل الموسيقى حرام أم حلال ؟ !

إن إقحام الدين فى كل شىء قد أفقد الدين هيبته وجلاله ، ألا نذكر تلك الفتوى عن مفطرات الصيام ؟ وذلك السؤال من الطبيبة عن : هل تشريح جثة رجل حرام ؟ والسؤال الآخر : هل أخلع الحجاب أمام كلب ذكر تربى معنا فى البيت ؟

وهل ندفن المرأة والرجل فى مقبرة واحدة ؟ وغير ذلك من الأسئلة الغريبة التى قرأنا عنها فى الصحف فى السنين الأخيرة .

وإذا كانت الدولة حريصة على الدستور والدستور يحض على الحرية حتى حرية العقيدة فلماذا يُحرم من الحديث فى التليفزيون والراديو وأجهزة الدولة المفكرون والمثقفون من مختلف الاتجاهات الفكرية بصرف النظر عن كونهم من المعارضة أو الحكومة ؟ ! ولماذا توافق الدولة على هذه التنازلات والقرارات التى اتخذها رؤساء الجامعات ومنعوا الحفلات الموسيقية ؟ ! .

إن تناقض المسئولين فى الدولة وتردد المعارضة وسكوتها عما يحدث ، وسكوت أغلب المثقفين والكتاب والمؤسسات الرسمية والشعبية هو الذى يعطى الفرصة لهذه الردة الحضارية الخطيرة أن تستشرى .

إن موقف عادل إمام يحتاج إلى المساندة والتشجيع . لكن هذا لا يكفى ، لماذا لا نسمع صوت نقابة الفنانين ونقابات واتحادات الأدباء

وغيرهم من المؤسسات الفنية الرسمية والشعبية فى مصر . لقد ثارت نقابة الفنانين ضد قانون الانتخابات ؛ واعتصمت وفرضت على الرأى العام فى مصر احترامها فلماذا لا تعلن النقابة عن رفضها لهذه القوى الغريبة التى تحرم الموسيقى والفن ؟ لماذا لا تتصدى نقابات الفنانين فى مصر لهذه الحملة ضد الفن والموسيقى ؟ .

الكونية والمرأة والفساد

عدت إلى الوطن بعد غيبة أربع سنوات ، كنت أستاذة زائرة فى جامعة ديوك بولاية نورث كارولينا فى أمريكا الشمالية ، قمت بتدريس مادة « الإبداع » للطلاب والطالبات من مختلف الجنسيات ، منهم مصريون وعرب وُلدوا فى أمريكا ، أو نزحوا إليها ، يدور الحوار فى الفصل حول الإبداع الأدبى ، إلا أن الأدب غير منفصل عن الثقافة أو التربية أو الأخلاق أو الدين أو الاقتصاد أو السياسة .

فى الحياة الأكاديمية الأمريكية يمكن للأساتذة والأستاذات أن يتحدثوا فى أى شىء ، ويتشككوا فى جميع الحقائق الكبرى ، أو الثوابت المقدسة ، طالما أن حديثهم هذا داخل الفصل ، لا يهز شعرة واحدة فى القوة الكونية الدولية بالبيت الأبيض ، أو دعائمها الاقتصادية والعسكرية ، تنفصل الحياة الأكاديمية داخل الجامعة عن الحياة خارجها فى الغرب والشرق والشمال والجنوب ، بمثل ما ينفصل الاقتصاد عن الأخلاق أو التربية داخل الأسرة .

فى الصحف الأمريكية انتشرت المقالات عن الكونية ، هذا الموضوع الذى أصبح « موضة » العصر ، وانتقل إلى بلادنا الإفريقية والعربية بمثل ما تنتقل موضات الأزياء وماكياج النساء ، يلى ذلك

فى الانتشار المقالات عن الفساد والرشوة ، حتى الرئيس الأمريكى « بيل كلينتون » وزوجته « هيلارى » لم تكف صحافة الحزب الجمهورى عن كشف الفساد الاقتصادى (الرشوة) فيما سُمى فضيحة أو قضية « هوايت وورتر » .

يلى ذلك فى الانتشار المقالات عن المرأة أو الجنس أو الأمراض الجنسية مثل « الإيدز » أو فضائح العلاقات السرية بين الحكام والعشيقات ، إلى غير ذلك ، مما نشهده فى جزء كبير من صحافة الإثارة الجنسية والسياسية بهدف زيادة التوزيع .

لا يمكن للمفكرين أو الكتاب الأمريكيين المنتشرين فى الإعلام والصحف ، أو الأساتذة فى الجامعات أن يلعبوا دورًا كبيرًا فى تنوير الشعب الأمريكى ، بأهم قضايا العصر ، وعلى رأسها القهر الاقتصادى والجسدى الواقع على الفقراء والنساء الأمريكيات ،وقد تزايد الفقر فى الولايات المتحدة ، واشتدت الهوة بين الأثرياء والفقراء ، وتراجعت الأصوات المطالبة بتحرير النساء من القهر المزدوج (الاقتصاد والجنس) بسبب الضغوط المتزايدة من قوى اليمين المتصاعدة تحت شعارات سياسية أو دينية ، هناك أيضًا تلك التيارات التى يسمونها « الأصولية المسيحية » التى تدعم النظام الرأسمالى الطبقى الأبوى ، وتدعو إلى عودة المرأة إلى حظيرة البيت والدين ، وتتبنى الأفكار العنصرية المعادية للطبقات الفقيرة والبشرة السوداء .

هناك بالطبع معارضة لهذه الردة ، إلا أنها ضعيفة لا تملك وسائل الإعلام رغم أنها تعبر عن الأغلبية المقهورة من النساء والرجال فى أمريكا الشمالية ، فى الانتخابات الأخيرة امتنعت هذه الأغلبية عن التصويت لصالح الحزب الديموقراطى أو الحزب الجمهورى ، كلاهما سيئ كما قالت لى زميلتى الأستاذة فى جامعة ديوك « نحن نعيش ديموقراطية مزيفة لأن أصحاب الأموال هم فقط القادرين على خوض هذه المباراة الانتخابية ، وقد نجح فى ولاية نورث كارولينا رجل يملك الملايين ودخل الكونجرس رغم أنه فاسد » .

والسؤال لماذا يستمر الفساد - بل ربما يتزايد - رغم كل هذا الكلام عنه ؟ ! سألت أحد كبار الأساتذة فى مصر ماذا يعنى بالفساد فقال لى « السرقة والرشوة والاختلاس » إذن الفساد يتعلق بنهب المال أو الرشوة التى أصبحت سائدة بين الحيتان الكبيرة والصغيرة . إلا أن القانون والعرف لا يعاقبان إلا الأضعف أو الأصغر ، وينجو من العقاب الأقوى أو الأكبر .

وضع بعض الأساتذة إصبعهم على هذا الفساد الاقتصادى الشائع ، والتناقض فى القانون الذى يعاقب المرتشى ولا يعاقب الراشى ، رغم أنه الفاعل الأصلى وهو الذى يملك وسائل الرشوة أو الإفساد .

إلا أن هذا الأمر ظل محدودًا داخل المجال الاقتصادى فحسب ، لم أقرأ شيئًا عن الترابط بين الفساد الاقتصادى والفساد الأخلاقى فى

الحياة الشخصية للأفراد ، أو عن الترابط بين التناقض فى قانون العقوبات (الخاص بالرشوة مثلا) والتناقض فى قانون الأحوال الشخصية أو القوانين الأخلاقية التى تحكم العلاقة بين النساء والرجال .

إن الرجل مثلا لا يعاقب فى القانون أو العرف إذا أقام علاقة غير أخلاقية مع المرأة ، إذا ضُبط رجل مع امرأة هى التى تعاقب وحدها ولا يكون الرجل إلا شاهدا عليها ، وبالمثل أيضا فإن الراشى لا يعاقب (حسب قانون العقوبات (المادة ١٠٧) إذا اعترف على المرتشى فى التحقيق .

قليلون من المفكرين الرجال أو النساء الذين يربطون بين سلوك الإنسان العام وسلوكه الخاص ، فالرجل بريئ فى نظر القانون والعرف رغم أنه الفاعل الأصلى فى العلاقات غير الأخلاقية ، والراشى بريئ فى نظر القانون والعرف رغم أنه الفاعل الأصلى فى عملية الرشوة .

كيف درجنا على عقاب الضحية وتبرئة الجانى لمجرد أنه يملك المال أو السلطة أو الذكورة ؟ ! هذه القيم القديمة منذ العبودية لا تزال تتحكم فى القوانين العامة والخاصة حتى اليوم ، وهى فى رأيى أحد الأسباب الرئيسية فى استمرار الفساد على المستوى العام والخاص معا .

فالإنسان ينقسم قسمين واحد عام وواحد خاص ، والرجل الذى يُقَدِّم الرشوة هو نفسه الرجل الذى يخون زوجته أو يسعى إلى امرأة أخرى دون علمها .

ربما يكون هذا الفساد الأخير أكبر من الرشوة ، لأنه يمس أعمق ما فى الإنسان ، حياته الخاصة ، علاقته بجسده وأجساد الأخرين ، وهى أخطر من العلاقة الاقتصادية أو تبادل الأوراق المالية ، التى وإن عظمت فهى لا ترقى إلى العلاقات الجسدية وتبادل المشاعر ، أو العلاقات الشخصية التى تلعب دورًا رئيسيًّا فى تكوين العقول والقيم لدى الأجيال المتعاقبة داخل الأسرة وفى المجتمع الكبير ، من هنا يصبح الفساد فى العلاقات بين النساء والرجال أشد خطورة من الفساد فى العلاقات الاقتصادية ، كلاهما مترابط على أى حال ، ولا يمكن الفصل بين الاقتصاد والأخلاق أو التربية أو التعليم أو الإعلام أو السياسة المحلية أو الدولية .

قرأت الكثير من المقالات خارج الوطن وداخله عن السياسة الدولية والكونية والعولمة إلا أنها فى معظمها أفكار محدودة داخل المجال الاقتصادى أو السياسى ، لا تربط (إلا نادرا) بالقضايا الأخرى ، لهذا السبب أيضًا يستمر الفساد على المستوى الدولى كما يستمر على المستوى المحلى كما يستمر على المستوى الشخصى أو الفردى .

يحكم الكون أو العالم فى السياسة الدولية الفكرة ذاتها التى تعاقب الضحية ، الدولة الأضعف مثلا ، على حين تخرج الدولة القوية الكبرى بريئة طاهرة الذيل بل هى التى توقع العقوبات على البلاد الفقيرة ، رغم أنها هى السبب الأصلى لهذا الفقر .

فى الكونجرس الأمريكى ؛ إلتقيت ببعض الأعضاء منذ شهور قالوا لى : « نحن ندفع لمصر ٢$\frac{١}{٤}$ مليار دولار سنويا ، وكذا لمعظم البلاد فى إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية – ما يسمونه العالم الثالث أو الجنوب – يتبدد معظمها دون ضوابط أو حسابات » . وكأن أجهزة الحكم فى البلاد الفقيرة هى سبب الفساد فى الكون ، أما الدول الكبرى فهى بريئة براءة الرجل الذى يخرج من فراش المرأة ليشهد عليها فى المحكمة ، وتساق وحدها للسجن .

حتى البنك الدولى ، الذى هو أحد الأسباب الرئيسية للتدهور الاقتصادى فى إفريقيا ، أصبح يتحدث عن فساد أنظمة الحكم فى البلاد الإفريقية كما يتحدث الرجال عن فساد النساء رغم أنهم شركاء فى الجريمة بل الفاعلون الأصليون .

إننا ندور فى حلقة مغلقة من الفساد العالمى إلى الفساد المحلى إلى الفساد الشخصى أو الفردى ، ونادرًا ما يحدث الترابط بين هذه المستويات الثلاثة .

بدون هذا الربط لا يمكن أن نفهم الأسباب الحقيقية للفساد ، وبالتالى لا يمكن الوصول إلى العلاج الحقيقى ، بل المسكنات والمنومات والمخدرات .

لماذا لا يحدث هذا الربط ، لأن التعليم فى بلادنا (وفى بلاد أخرى

كثيرة) يقوم على تجزئة المعرفة ، وفصل الأدب عن السياسة عن الثقافة عن الاقتصاد عن الأخلاق عن الجنس عن النفس عن التاريخ والدين والمجتمع .

سألت أحد العلماء الأمريكيين المتخصصين فيما يسمى اليوم « علم الكونية » هل قرأت شيئًا عن قضية المرأة ؟ اتسعت عيناه بدهشة : ما العلاقة بين الكونية وقضية المرأة ؟

حين عدت إلى الوطن سألت أحد العلماء المصريين (فى علم الكونية) السؤال نفسه ، وتلقيت الإجابة ذاتها لا توجد علاقة بين الكونية وقضية المرأة .

بسبب هذه التجزئة فى المعرفة تتعاقب الأجيال من الشباب والشابات العاجزين عن إدراك ما يدور فى حياتهم العامة والخاصة ، يعانون الانفصام ذاته الذى يعانى منه الأساتذة .

أما هؤلاء القلة الذين يعالجون هذا الانفصام فى كتاباتهم ، فهى تظل دائما بعيدة عن متناول الأغلبية الساحقة من القراء والقارئات ، ذلك أنهم مطاردون خارج أجهزة الإعلام والصحف ذات التوزيع الكبير الواصل إلى الجماهير ، وأغلبهم يعيش المنفى داخل الوطن أو خارجه .

المرأة لا تولد امرأة بل تصبح امرأة

من نافذتى الزجاجية الفسيحة أطل على « قمة التشابل » كما يسمونها هنا فى جامعة « ديوك » ورءوس الأشجار الباسقة تناطح السحب ، الصنوبر والأرز وأنواع أخرى ضخمة تشبه الأشجار فى أفريقيا الاستوائية وغابات الهند وسرى لانكا الكثيفة . أمامى فوق المكتب كشف بأسماء الطلاب والطالبات الذين اختاروا الانضمام إلى فصل « المرأة والإبداع » ، والذى أقوم فيه بتدريس رواياتى وأعمالى الأدبية ، وأعمال أخرى لبعض الأدباء والأديبات من مختلف أنحاء العالم ..

الطلبة والطالبات هنا هم الذين يختارون الأساتذة . جاءوا من القارات الخمس ليدرسوا هنا فى جامعة ديوك فى ولاية نورث كارولينا . واحدة منهم اسمها « مايا » من الهند ، قالت لى أول يوم دخلت فيه الفصل : « قرأت روايتك » « فردوس » منذ أربع سنوات فغيرت حياتى كلها ، وشاب أمريكى يدرس الطب ومع ذلك أدرج اسمه فى كشف فصل المرأة والإبداع ، وسألته لماذا ؟ قال : لأنى مثلك تماما أحب الأدب والطب معًا ..

تجربة جديدة أعيشها هنا فى هذه الجامعة الأمريكية ..

تجربة الربط بين العلم والفن والطب والأدب والحلم والحقيقة

والجسم والعقل ، أحمل لقبا جديدا هو « أستاذة زائرة » أعيش وسط الشباب والشابات . أكل معهم فى مطعم الطلاب . أتجنب مطعم الأساتذة أشعر على نحو غريب أننى أنتمى إلى عالم الشباب وليس الكهول . شعرى شاب وأبيض منذ زمن بعيد . لكن بشرتى لاتزال مشدودة وقلبى مشدودا إلى المستقبل أمشى أكاد أجرى كما كنت وأنا طفلة . لم تتغير خطوتى فوق الأرض لا أعرف هذه المشية المرتخية البطيئة لنساء الطبقات العليا من ذوات الكعوب العليا الرفيعة ..

أنا أمشى فوق الممرات الطويلة بين سيقان الأشجار الممدودة عاليا مثل ناطحات السحب . والمبانى البيضاء الضخمة ذات الطراز الأمريكى القديم منذ القرن الماضى . والأسقف الحمراء تطل منها المداخن ..

أتوقف أمام المبنى الأبيض الغارق فى غابة من الشجر إنه القسم الذى أدرس فيه . أرى اسمى مكتوبا فوق لوحة صغيرة من تحتها رف صغير يحمل البريد المرسل إلى ، والأخبار الجديدة عن الأنشطة فى الجامعة . جامعة ديوك (Dyke) تنطقها السكرتيرة « جيل » بطريقة غريبة على أذنى امرأة أمريكية بيضاء البشرة جاءت من كارولينا الجنوبية ، حيث تتغير اللهجة مثل لهجة أهل الصعيد فى بلادنا . « جيل » تعمل سكرتيرة القسم الأدبى ثم تركب سيارتها الحمراء وتعود إلى مزرعتها حيث بيتها وابنتها وزوجها . إنها تملك مع أسرتها خمسمائة فدان وسبعين بقرة تحلبها وتبيع لبنها ، وأقول لها : لابد

أنك من الأثرياء وتضحك جيل بصوت عال يشبه صوت الفلاحات فى قريتى كفر طحلة وتقول : لو كنت من الأثرياء ما اضطررت إلى العمل كسكرتيرة . لا أستطيع أن أعيش أنا وأسرتى من دخل الأرض والبقر ، لأنه قليل بالنسبة لغلاء المعيشة ومصاريف الأسرة . نحن الفلاحون نعانى هنا من النظام الاقتصادى الذى يجعل أصحاب المصانع ، وخاصة مصانع السلاح هم الأثرياء ، أما أصحاب الأرض من الفلاحين من أمثالى فمازلنا نعانى ..

تذكرت ، وهى تكلمنى ، مظاهرات الفلاحين الذين خرجوا بالآلاف من مختلف بلاد أوروبا ، وتجمعوا أمام مقر المجلس الأوروبى فى ستراسبورج يوم ١ ديسمبر ١٩٩٢ ، وقدموا احتجاجا ضد الاتفاقية الأمريكية الأوروبية بقطع الدعم الزراعى ، وفى برن ، بسويسرا ، وأنا أمشى أمام البرلمان السويسرى يوم ١٤ ديسمبر ١٩٩٢ رأيت مجموعة من الفلاحين ، تتوسطهم بقرة ضخمة تسد مدخل البرلمان . كان مشهدا غريبا ، ذكرنى على نحو ما بالبقرة المقدسة التى يعبدها بعض الناس في الهند . لكننى عرفت أنها مظاهرة احتجاج من الفلاحين (وأبقارهم أيضا) على قرار الحكومة بشق طريق فى الجبال يدمر مزارعهم ومراعيهم . وقال لى واحد من الفلاحين بصوت غاضب : إنهم أهل الصناعة الذين يحكمون ويبطشون بأهل الزراعة من الفلاحين ..

إن السكرتيرة « جيل » فلاحة تحلب سبعين بقرة وتكتب على

الكمبيوتر ، وتعرف قوانين الجامعة ، وتحكى لى الكثير عن الصراعات بين أهل الزراعة وأهل الصناعة والسلاح فى المجتمع الأمريكى . وهى لاتقف لأحد حين يدخل عليها وإن كان عميد الجامعة أو الرئيس كلينتون . هكذا هى تقول . إنها لاتقف لأحد ، لأنها تؤدى عملها بالكامل ، وليس ضمن واجباتها الوقوف لأى أحد ..

الشتاء هنا يذكرنى بشتاء نيودلهى فى الهند . دافئ والشمس ساطعة . الأشجار ساكنة تماما بلا ريح . الثلاثاء من كل أسبوع هو اليوم المشحون بالعمل . حيث ألتقى مع الطلبة والطالبات فى فصل الإبداع والمرأة . حين طلبت منى الجامعة أن أقوم بالتدريس ، قلت : « أنا لم أشتغل بالتدريس أبدا وكم أكره كلمة التدريس والمدرسين » لكنهم قالوا لى : التدريس هنا مختلف ، ولك مطلق الحرية فى الاختيار . قلت : اختيار ماذا ؟ قالوا : اختيار ما تدرسين ..

وهكذا اخترت أن أدرس أعمالى الأدبية . كم هى تجربة جديدة وشيقة . أن تقوم الأديبة بتدريس رواياتها للطلاب والطالبات والتدريس هنا يعنى الجدل والحوار والنقد . لأول مرة أسمع نقد الطلاب والطالبات لرواياتى وقصصى . بعضهم بدا لى أكثر فهما للأدب من بعض النقاد ..

فى إحدى هذه الأمسيات دار الجدل حول المدرسة الجديدة للنقد الأدبى النسائى . ذهبت إلى الأمسية مع شريف حتاتة (وهو أيضا

أستاذ زائر فى جامعة « ديوك » يجمع فى محاضراته بين الأدب والسياسة) وتعرفنا على عدد من الطلاب والأساتذة . منهم « توريل موى » وهى أستاذة للنقد الأدبى النسائى الجديد . أهدتنى بعض مؤلفاتها وآخرها كتاب جديد عن سيمون دى بوفوار ..

قرأت الكتاب فى ليلة واحدة . إنه رؤية جديدة أكثر صدقا وعمقا لأعمال سيمون دى بوفوار وحياتها ، بلا فصل بين الحياة والنص ..

وتدعونى « توريل موى » إلى العشاء فى منزلها ، داخل غابة من أشجار الصنوبر والأرز . دقيقة الملامح ، نحيفة الجسم ، تتكلم اللغة الإنجليزية بلكنة نرويجية ، فهى فى الأصل من النرويج ، وحماسها للكاتبات من النساء صادق عميق ، وخاصة فرجينيا وولف وسيمون دى بوفوار ..

تطل من وراء نافذتها الزجاجية على قمم الأشجار وتقول : لا يمكن الفصل بين حياة الأديب أو الأديبة والنص المكتوب لا يمكن فصل حياة سيمون دى بوفوار عن كتاباتها وأعمالها المنشورة . الإنسان هو ما يكتب من نصوص . سيمون دى بوفوار واحدة من أهم المفكرين فى العالم خلال القرن العشرين ، وتعرضت لهجوم كبير من النقاد فى فرنسا ، بعضهم اتهمها بالسطحية ، أو النرجسية أو التمحور حول الذات ، وبعضهم أهمل أعمالها الأدبية ولم يهتم إلا بحياتها الشخصية كامرأة أو علاقتها بسارتر وبعضهم لجأ إلى الصمت وتجاهل وجودها تماما وانشغل بكتاب من الرجال الهامشيين فى الأدب الفرنسى ..

وأعود بذاكرتى إلى الوطن يذكرنى الهجوم على سيمون دى بوفوار بالهجوم الذى تتعرض له بعض الكاتبات فى بلادنا . لقد ولدت سيمون دى بوفوار فى فرنسا عام ١٩٠٨ ، وأنا ولدت فى مصر بعدها بثلاثة وعشرين عاما . وحين أسمع هجاء النقاد الفرنسيين لها أدرك كيف يتشابه النقاد فى فرنسا ومصر وغيرهما من بلاد العالم ، رغم اختلاف الزمان أو اللغة أو التاريخ أو الدين أو الثقافة ..

ولعل أهم عبارة كتبتها سيمون دى بوفوار فى كتابها « الجنس الآخر » (١٩٤٩) هذه العبارة التى أصبحت مثل الحكمة النسائية السائدة فى أمريكا اليوم .. « المرأة لا تولد امرأة بل تصبح امرأة » ..

معنى ذلك أن المجتمع هو الذى يصنع شخصية المرأة وصفاتها الأنثوية وليس الطبيعة أو البيولوجيا ..

استطاعت هذه الفكرة أن تهدم فكرة سابقة عليها كان يتبناها سيجموند فرويد تقول : إن الطبيعة أو البيولوجيا هى التى تحدد مصير الإنسان الرجل أو المرأة . وبالانجليزية (Anatomy is destiny) .

لكن الفلسفة تغيرت ، وتغير معها علم النفس وعلم الجسم (البيولوجيا) وتغير أيضا الأدب والنقد الأدبى . شارك فى هذا التغيير عدد قليل من الرجال المفكرين ، وعدد أكبر من النساء المفكرات والكاتبات فى العالم ، منهم سيمون دى بوفوار ، ومن قبلها كانت فرجينيا وولف التى ولدت عام ١٨٨٢ فى إنجلترا ، وتعرضت لهجوم

أشد مما تعرضت له سيمون دى بوفوار فى فرنسا إلى حد أن قضت أيامها الأخيرة مع المرض النفسى (مثل كاتبتنا العربية مى زيادة) ثم ماتت منتحرة عام ١٩٤٥ ..

حاول النقاد دفن فرجينيا وولف ، وسيمون دى بوفوار إلى الأبد فلا يذكرهما أحد . لكن الناقدات الجديدات من النساء بدأن إعادة اكتشاف هاتين الكاتبتين فى ضوء المدرسة النقدية الجديدة ، وإعادة اكتشاف تلك القيمة الكبيرة لأعمالها الأدبية غير المنفصلة عن حياتهما ونضالهما من أجل الإبداع والحرية ..

فى المساء ذهبت لمشاهدة فيلم جديد من إخراج مخرجة إنجليزية اسمها « سالى بوتر » أخذته عن رواية فرجينيا وولف « أورلاندو » جيل جديد من المخرجات السينمائيات يحاولن إعادة اكتشاف الأديبات من مثيلات فرجينيا وولف ..

ساعتان من المتعة الفكرية داخل عقل هذه الأديبة البريطانية التى لم يحتملها المجتمع البريطانى فى الأربعينيات من هذا القرن العشرين ، وقتلت نفسها بيدها ، بعد أن خطت هذه اليد عددا من المؤلفات الأدبية لم تدرك قيمتها الحركة النقدية فى زمانها ..

حول ختان الذكور والإناث

منذ تخرجت فى كلية الطب فى ديسمبر ١٩٥٤ وأنا أشعر بمسئولية كبيرة تجاه هذا الشيء الذى اسمه « الختان » . أو قطع جزء من جسم الطفل أو الطفلة تحت شعارات صحية أو أخلاقية أو دينية أو جمالية ..

عرفت فى كلية الطب أن المشرط يجب ألا يقطع من الجسم إلا الجزء المريض . أما الأجزاء السليمة فلماذا تقطع ؟ ! بالطبع لم ندرس فى كلية الطب شيئا عن أسباب ختان الذكور أو الإناث . دربونا فقط على إجراء هذه العمليات فى قسم الجراحة حين اشتغلنا أطباء امتياز أو نوابا فى قصر العينى ..

بالإحساس الفطرى رفضت أن أجرى هذه العمليات للإناث أو الذكور . كيف أقطع بالمشرط فى جسم طفل سليم ؟ ! كل شيء فى جسم الإنسان له وظيفة حتى الزائدة الدودية . قرأت دراسة طبية فى جامعة ديوك بالولايات المتحدة تقول إن استئصال الزائدة الدودية السليمة (دون التهاب) يؤدى إلى مشاكل صحية أقلها الإمساك المزمن . كان بعض الأطباء الأمريكيين المؤمنين (خلال الخمسينات من هذا القرن) بأن الطفل حين يولد يجب أن تستأصل له الزائدة الدودية كنوع من الوقاية ضد التهابها فى المستقبل . كان هناك أيضا

أطباء أمريكيون يؤمنون باستئصال « اللوز » من فم الطفل المولود كنوع من الوقاية ضد التهاب اللوز حين يكبر الطفل ..

كنت أدرس فى جامعة كولومبيا عامى ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ . وقد ناقشت بعض زملائى الأطباء فى هذا الموضوع . كنت أرفض تماما هذه الأفكار التى تبدو وقائية ، لكنها فى الحقيقة غير وقائية بالمرة . ذلك أن أعضاء الجسم قادرة على وقاية نفسها بنفسها أكثر من أى طبيب ..

إن الطبيعة أقدر وأكثر كفاءة من أى طبيب . إن اللوز السليمة فى جسم الطفل تحميه من كثير من الأمراض . لقد أوجدت الطبيعة اللوزتين فى حلق الإنسان ليقتلا الكثير من الميكروبات التى يمكن أن تدخل إلى الجوف (الجهاز التنفسى ، أو الجهاز الهضمى) ..

بل أوجدت الطبيعة فى فم الإنسان وفى اللعاب بعض الميكروبات القاتلة لميكروبات أخرى يمكن أن تدخل عن طريق الأكل الملوث أو الشرب ..

إن أمعاء الإنسان بها الكثير من الميكروبات المفيدة ، والتى إذا ماتت عن طريق بعض الأدوية ، يمكن أن تصاب الأمعاء بأمراض متعددة ..

الطبيعة إذن لها حكمتها العظيمة التى جعلت جسم الإنسان على هذه الدرجة العالية من الكفاءة للحفاظ على الصحة والحياة ومقاومة الأمراض والجراثيم المنتشرة فى الجو ..

لهذا فإن كل جزء من جسم الإنسان له وظيفة وقائية قد يعلمها الطب والأطباء ، وقد يجهلها الطب والأطباء ..

ذلك أن « علم الطب » يعتبر « حديثا » بالنسبة « لعمر الإنسان » على الأرض ، لايزال الطب والأطباء يجهلون أربعة أخماس وظائف خلايا المخ الأساسية فى الإنسان . الطب لا يعرف إلا خمس وظائف للمخ ..

لقد تطورت خلايا المخ البشرى وأصبح لها وظائف وقدرات يجهلها الأطباء فى العالم حتى اليوم ..

فى الستينات من هذا القرن كنت عضوا فى مجلس نقابة الأطباء . فى إحدى الجلسات طلبت من مجلس النقابة التدخل لمنع عمليات الختان فى مصر سواء للإناث أو الذكور ..

رفضت الأغلبية مناقشة الموضوع . قال معظم الأطباء إن عملية ختان الذكور ضرورية للصحة والنظافة والشكل أيضا . إنها عملية طهارة رقيقة . مجرد تقليم أطراف مثل تقليم الأظافر . لا تؤثر على وظيفة العضو ولا تمسه بأى ضرر . قال بعضهم إنها عادة قديمة صحية جدا وبالتالى جاءت فى التوراة ، ونحن المسلمين نؤمن بالتوراة والإنجيل والقرآن ..

هكذا قفل الحديث فى موضوع ختان الذكور . ثم سألت عن موضوع ختان الإناث . أيضا رفض معظم الأطباء الحديث فى

الموضوع . قال أحدهم طهارة البنت ضرورية للصحة والنظافة والشكل أيضا . إنها عملية رقيقة . مجرد تقليم أطراف . لا تؤثر على حياة المرأة أو صحتها . إن عضو المرأة الذى يقطع فى الطهارة ليس له فائدة . بل بالعكس . إنه ضار . إنه يجعل المرأة تنصرف إلى إشباع رغبتها الجنسية على حساب مصلحة الزوج والأطفال ..

لم يكن لى أن أقنع زملائى الأطباء فى نقابة الأطباء . لهذا لجأت إلى القلم ومخاطبة الناس العاديين عن طريق الكتابة . كانت الرقابة على الكتب تقطع أى شىء عن الختان سواء للذكور أوالبنات . ثم بدأت الرقابة فى نهاية الستينيات تخفف قليلا من حدتها . استطعت أن أكتب ضد ختان البنات إلا أن الرقابة كانت قادرة دائما على حذف أهم الأشياء . كما أنها لم تكن تسمح أبدا بأى شىء ضد ختان الذكور ..

فى الولايات المتحدة اليوم حملة علمية ضد الختان بكافة أنواعه . تكونت جمعيات فى أمريكا تحت اسم « محاربة ختان الذكور والإناث » فى الولايات المتحدة . بعض أعضاء هذه الجمعيات أطباء أدركوا مضار هذه العمليات . نُشرت العديد من البحوث الطبية تثبت أن ختان الذكور وختان الإناث عمليات ضارة بالصحة النفسية والجسدية . عقدت مؤتمرات فى كثير من المدن الأمريكية كان موضوعها الختان وآثاره الضارة على صحة النساء والرجال . دُعيتُ إلى بعض هذه الاجتماعات والمؤتمرات . هناك بعض المجلات تصدر

عن هذه الجمعيات . تشرح للناس فى أمريكا مضار الختان العضوية والنفسية ..

فى أوروبا أيضا بدأت هذه الحملة العلمية ضد الختان . المعروف أن ختان الذكور والإناث كان يحدث فى جميع المجتمعات البشرية منذ نشوء العبودية . إنه ليس عادة إفريقية كما يظن بعض الناس . لقد حدث ختان الذكور والإناث فى جميع قارات العالم . فى آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا الشمالية والجنوبية ..

فى مصر القديمة لم يكن الختان معروفا ، نشأ الختان فى مصر القديمة بعد نشوء العبودية ، وانقسام البشر إلى عبيد وأسياد . كان الأسياد يطالبون العبيد بالختان . كانت عمليات الختان تجرى بأمر فرعون الإله . كان الإله فرعون يغضب كثيرا حين يرى ذكرا غير مختتن ..

إن ختان الذكور عادة عبودية . إن العبيد يقدمون القرابين للآلهة . هذه القرابين كانت ذبائح لحوم تأكلها الآلهة . إذا كنت عبدا فقيرا لا تملك الضأن ولا تملك تقديم ذبائح عليك أن تقدم خضراوات مما تنتجه الأرض . كانت الآلهة يفضلون القرابين من اللحوم على القرابين من الخضراوات أو النباتات ..

أما العبيد الذين لا يملكون إلا أجسادهم فعليهم أن يقطعوا جزءا

من هذا اللحم ويقدم قربانا للإله ، كنوع من الرمز على الولاء والطاعة والعبودية ..

بعض العبيد كانوا يقطعون آذانهم . فى عصرنا الحديث مازالت بعض الأنظمة العسكرية تقطع آذان الجنود الهاربين من الجيش . « وشم الجبين » كان أيضا نوعا من العقاب يفرضه السادة على العبيد ..

وقد أصدرت المنظمة العربية لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨ بيانا أعربت فيه قلقها البالغ من صدور عقوبة جديدة بقطع الآذن ووشم الجبين فى العراق ، واعتبرت المنظمة أن هذا القرار الصادر من مجلس الثورة العراقى يمثل مخالفة جسيمة للقانون الدولى لحقوق الإنسان ..

كان من المعتقد أن قطع الأذن الخارجية لا يمنع الإنسان من السماع . بالمثل فإن قطع الجلد حول رأس العضو عند الذكر لا تمس وظيفة العضو الجنسية . أو قطع جزء من أعضاء المرأة لا تؤثر على الصحة النفسية أو الجسدية .. إلخ ..

إلا أن حقائق الطب الجديدة كشفت عن أن كل جزء أو كل خلية حية فى جسم الإنسان لها وظيفة . حتى الأظافر فى جسم الإنسان لها وظيفة . نحن نقلم الأجزاء التى تموت من الأظافر .. نحن نقص الشعر حين يطول . لكن الشعر له فائدة كبيرة للإنسان فهو يحمى الرأس ويدفئها . لذلك يحلقون رؤوس المساجين كنوع من العقوبة

والإضعاف والإذلال . إن شعر الإنسان نوع من القوة والحماية . لماذا قصوا شعر شمشون ؟ ! ..

لقد ثبت أن قطعة الجلد التى تقطع فى ختان الذكور لها وظيفة وقائية فهى تحمى رأس العضو عند الذكر ، كما أنها تفرز مادة وقائية تسهل الممارسة الجنسية . إنها مثل الغطاء لعضو مهم فى جسم الذكر ..

فى بعض المجتمعات الصحراوية حين كان يشح الماء ويحدث ما يسمى التيمم بالتراب ، فإن بعض القذارة كانت تتجمع تحت هذه القطعة من الجلد ، وكان علاجها الاستئصال . لم تكن العقاقير الطبية قد عرفت بعد . لهذا السبب عرفت هذه العملية باسم « الطهارة » ، فى بعض هذه المجتمعات ..

أما ختان الإناث فهو أكثر ضررا وأكثر خطورة . لأن المسألة هنا تمس الوظيفة والكفاءة الجنسية وليس مجرد الصدمة النفسية . فى ختان الذكور يتعرض الطفل لصدمة نفسية قد تؤثر عليه طوال حياته . قد تكون فى اللاوعى أكثر من الوعى . هناك أيضا مخاطر التلوث وتقيح الجرح . ذلك أن هذه العمليات تجرى للطفل الذكر ، عادة فى الأسبوع الأول أو الثانى . (حسب التوراة : اليوم الثامن من العمر) . إن جهاز المناعة لا يكون قويا عند الطفل المولود وبالتالى فإن هذه الجروح معرضة للتلوث ..

فى ختان الإناث المضاعفات متعددة وأكثر خطورة . هناك العديد من الدراسات المنشورة عن هذه المضاعفات النفسية أو الجسدية . أعتقد أن واجب نقابة الأطباء اليوم هو نشر هذه المعلومات الجديدة على الناس فى مصر . إنها حقائق علمية منشورة باللغة الإنجليزية ، موجودة هنا فى الولايات المتحدة . لابد أن كثيرين من الأطباء المصريين الذين يسافرون يعرفون ذلك ، ويقرءون الكثير من هذه المعلومات الجديدة فلماذا هم يصمتون ؟ ! ..

إن ختان الذكور والإناث لا علاقة له بالأديان . إنه إحدى سمات المجتمعات العبودية التى كانت موجودة قبل ظهور اليهودية . إن أغلب اليهود فى العالم الغربى قد كفوا عن ختان الذكور ، كانت عملية ختان الذكور تجرى فى الولايات المتحدة لمعظم الأطفال ، ثم بدأت تتوقف أو تقل كثيرا فى السنين الأخيرة ..

إن ختان الإناث لا علاقة له بالإسلام أو البشرة السوداء فى أفريقيا كما يتصور البعض . إنه عادة عبودية لإخضاع النساء للأسياد من الرجال أو الآلهة . وقد حان الوقت أن يتوقف الناس عن هذه الممارسات العبودية ..

انتصار العقل على النقل

منذ بداية التاريخ البشرى ينقسم الناس إزاء المشكلات التى تواجههم إلى قسمين : قسم ينحاز إلى العقل والتفكير المنطقى وقسم آخر ينحاز إلى النقل من السابقين والأسلاف .

يتقدم المجتمع البشرى ويتطور من خلال الصراع بين هذين الفريقين ، الذى يأخذ أحيانا شكل الحوار العلمى الأدبى ، وأحيانا أخرى يلجأ إلى العنف الواضح ، أو المستتر تحت رداء العلم ذاته ، أو الطب ، أو القانون ، أو الدين ، أو الأخلاق وغيرها من المؤسسات الاجتماعية القوية السائدة .

وأثبت التاريخ البشرى أن فريق العقل ينتصر دائمًا على فريق النقل مهما اشتدت الأزمات ورغم الردة فى فترات الركود الثقافى أو الاقتصادى ، نلاحظ دائما فى التاريخ أن فترات النهضة والازدهار تأتى بعد فترات الردة والانحسار ، مثل عمليات المد والجذر فى مياه البحار . وسوف يحدث هذا فى بلادنا لأننا جزء من هذا التاريخ البشرى الذى عاش وانتصر على كثير من الأزمات .

لهذا السبب أنا أميل إلى التفاؤل فى عز اشتداد الأزمة ولا أميل إلى

هؤلاء المتشائمين الذين فقدوا الأمل خاصة بعد صدور قرار محكمة النقض ضد أحد المفكرين فى مصر ، وهو الدكتور نصر أبو زيد وضد زوجته الدكتورة إبتهال يونس . إلا أن هذا الأمل لا يتحقق إلا بالعمل الدءوب النشيط فى جميع المجالات وتقوية فريق العقل على فريق النقل .

وبالمثل أيضا فى قضية ختان الإناث وغيرها من القضايا التى تمس صميم حياتنا الشخصية . بمثل ماتمس الحياة العامة السياسية أو الثقافية ، فلا يوجد فاصل بين ما نسميه الخاص والعام ، كلاهما مترابط على المستوى الفردى الشخصى أو المستوى داخل العائلة أو الدولة فى الإقليم الواحد والعالم أجمع ، وهناك دراسات جديدة تكشف الترابط بين العنف فى السياسة الدولية والعنف الموجه ضد النساء والأطفال أو الشرائح الفقيرة الضعيفة فى أى مجتمع .

ويعتبر ختان الإناث أحد مظاهر العنف الموجه ضد نصف المجتمع وهم النساء ولذلك فهو قضية عامة وليس قضية خاصة بالمرأة وحدها .

وفى عام ١٩٦٨ حين كنت عضوًا بمجلس نقابة الأطباء كما سبق وأوضحت أننى طالبت النقابة بأن تلعب دورها كقيادة علمية تؤمن بالعلم والعقل أن تتصدى لمنع جريمة ختان الإناث ، واقترحت على زملائى الأطباء أن نقوم بحملة من الثقافة الصحية فى طول البلاد وعرضها لرفع الوعى لدى النساء والرجال ، واذكر أنى قابلت حينئذ

وزير التعليم ووزير الثقافة ووزير الصحة وغيرهم من المسئولين لتنسيق الجهود الثقافية فى هذا المجال ، إلا أن هؤلاء قد انقسموا إلى فريقين : فريق مع العقل يؤيد الجهود الجديدة ، وفريق آخر مع النقل عن الأسلاف واحترام التقاليد القديمة ومنها ختان الإناث .

فى مجلس نقابة الأطباء أيضا انقسم الزملاء إلى فريقين : فريق يؤيد اقتراحي بأن يشتمل « قَسم الطبيب » على فقرة جديدة تقول : « وألا أقطع أى جزء من جسم المرأة إلا بسبب المرض وألا أقوم بعمليات الختان للإناث وألا أجهض حاملا .. الخ » أما الفريق الآخر فقد اعترض على ذلك وكان عدد الفريقين متساويًا تقريبا ، ولم يتخذ القرار بأن تدخل عملية ختان الإناث تحت طائلة قانون آداب مهنة الطب .

وقد رحَّب الكثيرون وأنا منهم بقرار وزير الصحة ، (الدكتور إسماعيل سلام) لمنع عمليات ختان الإناث ومعاقبة من يقوم بها ، وبرز السؤال : كيف يقع العقاب دون وجود قانون يصدر عن مجلس الشعب بمنع الختان ؟ ثم قرأنا تصريحا لنقيب الأطباء (الدكتور حمدى السيد ، يقول فيه : « إن الإجراءات العقابية على ممارسة الأطباء للختان لن تشمل عقوبات جنائية لعدم وجود قانون يمنع الختان ، يمكن أن نحتكم إليه ، وأضاف النقيب على ذلك قائلا : « إن الختان لم يدخل حتى الآن ضمن قانون آداب المهنة كجريمة يعاقب عليها الطبيب » ، والسؤال الآن لماذا لم يدخل ؟ وهل عُرض الموضوع على مجلس النقابة ثم رُفض كما حدث منذ ثلاثين عامًا تقريبا ؟ !

والسؤال الأهم هو : ألا يمكن لنقابة الأطباء ووزارة الصحة الاستفادة من قانون الجنايات الموجود لمنع ختان الإناث ؟ ! هل من الضرورى انتظار قوانين جديدة ، قد تصدر أو لا تصدر ؟

يرى الكثيرون من رجال القانون فى بلادنا أن قانون الجنايات (فى بنديه ٢٤٠ ، ٢٦٨) صالح للاحتكام إليه لمعاقبة مرتكبى الختان ، إذا عدنا إلى نص المادة ٢٤٠ التى تقول : « يعاقب بالأشغال الشاقة من ٣ – ١٠ سنوات كل من أحدث جُرحا بالغير ينشأ عنه عاهة مستديمة » ، وإلى نص المادة ٢٦٨ التى تقول : يدخل تحت طائلة هتك العرض جريمة الكشف عن جزء من جسم المرأة الذى يعد من العورات التى تحرص على صونها وحجبها عن الأنظار وإن لم يقترن هذا الكشف بفعل مادى آخر ، لما فيه من خدش لعاطفة الحياء عند المرأة والمساس بعورة لا يجوز العبث بحرمتها » .

إن كلمة « جرح » فى الطب والقانون تعنى إحداث قطع فى الجسم أو تمزق بالأنسجة ، وهذا هو الركن المادى للجريمة وينطبق على الختان . كلمة « عاهة مستديمة » فى الطب والقانون تعنى نقص وظيفة ، أو قوة عضو من أعضاء الجسم ، أو أحد أجزائه ، أو فقد وظيفة كليا أو جزئيا مدى الحياة .

وهذا بالضبط ما يحدث فى عمليات ختان الإناث ، بالاضافة إلى أن العاهة المستديمة لا تصيب الجسم فقط ولكنها تصيب أيضا النفس

والمجتمع والأسرة ، والعلاقات الشخصية الخاصة والعامة بمشاكل أو تشوهات أثبتتها الدارسات الطبية والاجتماعية .

ويتوافر القصد الجنائى أيضا فى عمليات الختان ، إذ أن الطبيب أو الداية أو أسرة الفتاة يقدمون على إحداث هذا الجرح أو هذه العاهة المستديمة عن إرادة وإصرار وضد إرادة الفتاة عن طريق الترغيب أو الترهيب . فى إحدى الزيارات لقريتى كفر طلحة بمحافظة القليوبية ، عقدتُ ندوة فى مركز شباب القرية حول الختان . حين كنت طبيبة الوحدة الصحية المجمعة فى قرية طلحة عام ١٩٥٦ ، كنت أعقد مثل هذه الندوات ، كان أغلب الناس يؤيدون الختان وفى ندوة عام ١٩٩٦ انقسم شباب القرية إلى قسمين متساويين تقريبا ، قسم يؤيد الختان ، والقسم الآخر يعارض . أحد الحاضرين خطيب الجامع فى القرية ، كان من رأيه أن الختان ضرورى لحماية أخلاق المرأة ، وتساءلت : هل نقطع أعضاء البشر حماية لأخلاقهم ؟ ما الفرق إذن بين إخصاء العبيد وختان النساء ؟ ! وهل البشر من ذوى الجسم السليم غير المصاب بالختان بلا أخلاق ؟ ! ودار حوار طويل حول الأخلاق وكيف يمكن أن يتربى الرجال والنساء على الأخلاق المستقيمة دون عمليات جراحية ، ورفعت إحدى الشابات الصامتات صوتها قبل آخر الندوة قائلة : الأخلاق مالها ومال تقطيع جثث الناس بالموس ؟ ! واعترف خطيب الجامع أن الأخلاق لا علاقة لها بالعمليات الجراحية

للجسم ، وإنما تتعلق الأخلاق بالتربية السليمة فى البيوت والمدارس .
وهكذا تحوّل الحديث إلى الثقافة والعلم والعقل ضد التقليد والنقل عن
القديم .

لا تكفى العقوبات لاستئصال عادات راسخة قديمة مثل الختان .
ولابد من حملات ثقافية إعلامية وتعليمية وتربوية تشرح المفهوم
الصحيح للأخلاق والقيم للأطفال والشباب والشابات .

إن قضية الختان فى مصر قضية اجتماعية وسياسية وثقافية عامة
يتصارع فيها الفريقان الأزليان : فريق العقل وفريق النقل ، وهى
لا تختلف فى جوهرها عن قضية تكفير المفكرين الذين يستخدمون
العقل بدلا من النقل عن الأسلاف .

عن كرامة المرأة والختان

كنت خارج الوطن أشارك فى مظاهرة عالمية ضد الحرب الاقتصادية الدائرة ضد الشعوب الضعيفة غير المسلحة تحت اسم « الحصار » (الإمبارجو) ، حين قضت المحكمة الإدارية لمجلس الدولة فى مصر بإلغاء قرار وزير الصحة بمنع ختان الإناث بالمستشفيات والعيادات ، قالت المحكمة : إن فقهاء الشريعة الإسلامية اختلفوا حول شرعية ختان الإناث ،وأن الأطباء اختلفوا حول أضرار هذه العملية ، ومن ثم فإن تقييد حق الأطباء لا يجوز بقرار وزارى ، وإنما يجب أن يصدر ذلك بقانون .

بعد انتهاء المظاهرة ضد الحصار فى شوارع نيويورك أمام مبنى الأمم المتحدة ، التقى وفد منا بالأمين العام (المساعد) للأمم المتحدة وعدد من المسئولين فى مكتب الأمين العام ، وكان ضمن الوفد بعض الصحفيين الأمريكيين والعرب ، الذين ما أن انتهى الاجتماع حتى سألونى عن قرار المحكمة المصرية بشأن الختان . كان ذلك يوم أول يوليو ١٩٩٧ ، ولم أكن قرأت الصحف ذلك اليوم بسبب انشغالى بالمظاهرة التى نظمها أطفال العالم مع منظمات أخرى عربية وأمريكية ضد قتل الأطفال والشعوب البريئة تحت اسم العقوبات الاقتصادية

لحكومات معينة تغضب عليها الولايات المتحدة الأمريكية ومنها حكومة كوبا وليبيا والعراق وغيرها .

اندهشت ولم أندهش ، لأن موضوع ختان الإناث أصبح موضوعًا عالميًا مثل الحصار الاقتصادى ، الذى يروح ضحيته آلاف الأطفال الإناث والذكور على حد سواء ، ولا يختلف القتل الاقتصادى (التجويع) عن القتل الجسدى والجنسى لملايين الأطفال البنات فى كثير من بلاد العالم تحت مسميات أخلاقية أو دينية مختلفة .

فى الولايات المتحدة الأمريكية شهدت منذ عامين مظاهرات الجمعيات الطبية ضد ختان الذكور والإناث فى أمريكا الشمالية ، إذ أن حوالى ١٠,٠٠٠ طفلة فى أمريكا تتعرض لعملية الختان كل عام ، أغلبهن من أسر المهاجرين إلى الولايات المتحدة ، دار الحوار فى الكونجرس الأمريكى حول مضار الختان ، بعد أن أثبتت الدراسات الطبية خطورة هذه العمليات على صحة الأطفال الإناث والذكور ، إلا أن الخطورة على صحة الإناث أشد من الناحية البيولوجية والنفسية والاجتماعية .

قادت الحوار فى الكونجرس نائبة أمريكية دأبت على دراسة مضار الختان للإناث خاصة ، اسمها باتريشيا شرودر (Patricia Schroeder) وهى نائبة فى الكونجرس للحزب الديموقراطى عن ولاية « كلورادو » ، التى قدمت دراستها للكونجرس الأمريكى ، تقول

فيها : إن عشرة آلاف طفلة أمريكية تتعرض لمخاطر الختان فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأنها عكفت على دراسة هذا الموضوع الخطير لتنقذ هؤلاء البنات البريئات ، وأنها قرأت كتاب « الوجه الخفى لحواء » المترجم إلى الإنجليزية عن كتاب د . نوال السعداوى الكاتبة والطبيبة المصرية ، ولأنها تأثرت بهذا الكتاب لهذا بدأت مشوارها الطويل ضد هذه العملية داخل البرلمان الأمريكى ، وقدمت مشروع قانون لإلغاء هذه العملية فى أكتوبر ١٩٩٣ ، كنت حينئذ أستاذة زائرة فى جامعة ديوك بولاية نورث كارولينا حين جاءنى الخبر بالفاكس ، وأرسلت إلى النائبة « باتريشيا شرودور » أطلب منها تفاصيل المشروع ، وفعلاً أرسلت إلىّ نسخة منه ويتلخص فى الآتى :

١ - منع الختان فى الولايات المتحدة كلها وعمل برامج تعليمية للقضاء على هذه العادة الخطيرة خاصة فى الأحياء التى يعيش فيها المهاجرون من بلاد أخرى .

٢ - كل من يقوم بإجراء عملية ختان للإناث تحت سن ١٨ سنة يعاقب بالسجن لمدة خمس سنوات أو الغرامة المالية .

٣ - على وزارة الصحة وهيئات الخدمات الصحية عمل برامج تعليمية للأطباء والعاملين فى مجال الصحة للتوعية بمضار هذه العملية وضرورة المساعدة فى القضاء عليها .

وقد نجحت النائبة النشيطة باتريشيا شرودر وزميلتها فى

الكونجرس (باربرا روز كولينز) (Barbara Rose Collin) فى انتزاع قرار من الكونجرس بمنع ختان الإناث فى الولايات المتحدة ، أما ختان الذكور فلا تزال الجمعيات الطبية الأمريكية تسعى لمنعه رسميا أيضًا ، إذ يتعرض آلاف الأطفال الذكور لمشاكل صحية ونفسية من جراء تلك العملية التى تتمسك بها الجاليات اليهودية فى أمريكا ، باعتبارها وردت فى كتاب الله التوراة ، إلا أن كثيرًا من اليهود الأمريكيين لم يعودوا يؤمنون بالتوراة ، ويرفضون ختان أبنائهم .

حين عدت إلى مصر من نيويورك بعد المظاهرة العالمية ضد القتل الاقتصادى للشعوب البريئة قرأت مجلة المصور الصادرة فى ٤ يوليو ١٩٩٧ ، وراعنى ما قرأت ، خاصة ما جاء على لسان أحد كبار الدعاة ، الذى قال إن الختان للإناث (أو الخفاض) كرامة للمرأة ، لأنها بالختان تفقد شهوتها فلا تكون طالبة للرجل (بل مطلوبة منه) فالرجل لا يحب المرأة التى تطلبه ، أو الغوراء (بعيدة الشهوة أو الشبقية دائما) ، بحيث مثلا إذا ركبت دابة واهتزت فارت شهوتها ،فالختان إذن كرامة للمرأة .

دهشت لأن مثل هذا الكلام يُنشر على لسان واحد من أشهر الدعاة الإسلاميين وله أتباع كثيرون وكثيرات فى بلادنا ، ولم أقرأ ردًا على هذا الكلام الخطير ، الذى لا علاقة له بالعلم أو الطب أو صحة المرأة أو حتى كرامتها وأخلاقها .

ومَنْ هى المرأة التى تركب الدابة اليوم ؟ وإذا كان ركوب الدابة يثير شهوة المرأة (بسبب احتكاك البظر بظهر الدابة) ألا يحدث ذلك أيضًا للرجل ؟ !!

ماذا عند احتكاك العضو الذكرى بظهر الدابة ؟ لماذا لا نقطع إذن الأعضاء الذكرية للرجال بمثل ما نقطع بظور النساء ؟ !

من المعروف فى علم الطب أن « مخ » الإنسان (الرجل أو المرأة) هو العضو الجنسى الأساسى ، وهو مصدر الإثارة الجنسية ، أى أن « عقل » الإنسان هو الذى يتحكم فى شهوته سواء كان رجلاً أو امرأة ، وإلا عشنا مجتمعًا همجيًا يثور فيه الرجال والنساء بمجرد ركوب دابة أو دراجة أو شىء من هذا القبيل !

إن الملايين من النساء فى العالم غير مختتنات وهن يركبن الخيول والدراجات والنفاثات والدبابات ولا تحدث لهن أى إثارة جنسية لمجرد احتكاك شىء بأجسادهن !!

إن هناك من يتصور المرأة « حيوانا » يثور جنسيًّا لأى لمسة ، وهذا تصور خاطئ يدل على عدم دراية بالمرأة ، أو ربما هو خيال بعض الرجال أو أحلامهم الكامنة فى اللاوعى ، يتصور الرجل منهم أن المرأة ستصاب بالإغماء من شدة الشهوة إذا ما لمسها بيده ، إنها إحدى الخرافات المتوارثة فى التاريخ منذ نشوء العبودية أو النظام الطبقى

الأبوى ، الذى أدان شهوة المرأة الطبيعية وحرَّم عليها اللذة ، واعتبرها مجرد أداة للولادة والخدمة فى بيت الزوجية .

انعكست هذه القيم العبودية فى بعض الأديان منها الدين اليهودى ، وفى التوراة فقرة واضحة تعاقب حواء لأنها أكلت من شجرة المعرفة ، « تلدين فى الأسى والألم ويكون اشتياقك لزوجك وهو يسود عليك » . هذه الفقرة تشرح التحول من مبدأ المعرفة واللذة فى حياة النساء إلى مبدأ الألم والأسى والخضوع للزوج ، هذا المبدأ كان ضروريًّا لنشوء النظام الطبقى الأبوى ، القائم على اسم الأب بعد أن كانت المجتمعات القديمة أمومية تقوم على « اسم الأم » .

لقد حلت كثير من بلاد العالم الآن هذه المشكلة وأصبح الأطفال يحملون اسم الأب واسم الأم معا ، وهذا تطور إنسانى كبير ، عدل ميزان العدالة الاجتماعية الذى اختل منذ سيادة النظام العبودى .

لم يكن للنظام العبودى (الطبقى الأبوى) أن يسود ويستمر إلا بغرض القيود الجسدية والفكرية والقانونية على العبيد والنساء ، أصبح الرجل العبد مجرد الجسد أو الآلة العضلية التى تعمل فى الأرض بلا أجر إلا طعامه . كذلك المرأة ، أصبحت هى العبدة ، « الجسد » أو أداة للولادة والعمل فى البيت وفى الأرض بلا أجر إلا طعامها .

كان لابد من إصدار قوانين أخلاقية خاصة بالعبيد والنساء ، تقوم

على الزهد والعفة وإنكار اللذة فى الحياة ، حتى لذة المعرفة أصبحت محرَّمة فى حياة العبيد والنساء مثل اللذة الجنسية .

فى عصر من العصور كان السيد مالك الأرض والسلطة يربط عبده بالسلاسل حتى لا يهرب ، ويربط الرجل زوجته أيضا بسلاسل أخرى ، منها حزام العفة ،أو يغلق أعضاءها الجنسية بالدبابيس والمسامير ، حتى لا يقربها رجل آخر فى غيابه .

كان « الختان » مثل حزام العفة أحد الوسائل لمنع النساء من ممارسة الجنس أو الإحساس بلذة هذه العلاقة حتى مع الزوج ، وكان دور الزوجة هو الولادة وخدمة الزوج والأطفال ، لم يكن دور الزوجة إشباع زوجها جنسيا ، فهو يذهب إلى نساء أخريات من أجل الحصول على اللذة ، أما بيت الزوجية فهو لإنجاب الأطفال فقط وليس للذة ، من هنا جاءت فكرة « الأمهات العذراوات » .

ومن هنا نشأت « الازدواجية الأخلاقية » الخطيرة المصاحبة للنظام الطبقى الأبوى ، إذ يُباح للرجل تعدد العلاقات الجنسية خارج الزوجة ، على حين تُقتل المرأة إذا ما شكّ زوجها فى سلوكها .

ونشأت أيضا عادة الختان فى بلاد متعددة من العالم وليس فى إفريقيا فقط ، إنَّ بتر أعضاء المرأة خاصة « البظر » يفقدها جزءًا كبيرا من قُدْرَتها الجنسية ، إلا أنه لا يُفقدها الرغبة أو الإثارة ، لأن الإثارة

الجنسية تنبع من المخ أو العقل ، لكن القدرة على بلوغ اللذة الجنسية تعتمد على الأعضاء الجنسية خاصة « البظر » .

لهذا تعيش النساء المختتنات هذه المأساة التى تفتك بصحتهن النفسية . فالمرأة المختتنة تعيش فى إثارة جنسية دائمة دون قدرة على تصريفها عن طريق العلاقة الجنسية ، هذا التصريف للطاقة لا يتم إلا عن طريق بلوغ قمة اللذة (الأورجازم) ومن بعده تنتهى الإثارة وتعود المرأة إلى طبيعتها العادية .

إلا أن حرمان المرأة من البظر (بسبب الختان) يحرمها من « الأورجازم » أو « بلوغ اللذة » ، وبالتالى تظل الإثارة متأججة فى عقلها وخيالها دون إشباع ، مثل نار لا تنطفئ ، تظل كالجمرة تحت الرماد ، تفتك بصحة المرأة الجسدية والنفسية ، وتسبب لها عديدًا من الأمراض أولها « الاكتئاب » .

لقد ثبت أن الاكتئاب المسمى فى الطب النفسى باسم « اكتئاب الزوجات » يرجع إلى عدم قدرة أغلب الزوجات على بلوغ اللذة فى أى علاقة جنسية مع الزوج ، وإن كان يتمتع بكفاءة ذكرية عالية ، فالمسألة هنا ليس « قدرة الرجل » بل « عجز المرأة » عن إنهاء حالة الإثارة (التى أشعلها خيالها وعقلها) .

فى بلادنا تزداد المسألة بالتناقضات الخطيرة فى التربية والتعليم

والإعلام ، وفى الوقت الذى ترتكز فيه الفنون فى بلادنا على الإثارة الجنسية (للنساء والرجال) فإن القيم الدينية والأخلاقية ترتكز على الحرمان وتجاهل هذه الإثارة كأنها لم تكن .

يكفى أن تسمع الفتاة الأغانى العاطفية الشبقية فى الراديو ليثور خيالها ، إلا أنها تكبت نفسها وتعانى التمزق بين القيم المتضاربة .

يكفى أن ترى على الشاشة امرأة راقصة شبه عارية ، يتلوها مباشرة شيخ فاضل يرتدى العمامة يتحدث عن تحجب النساء وإيداعهن البيوت .

والقول بإن النساء ناقصات عقل ودين لكنهن كاملات العاطفة ... لا دور لهن فى مساعدة الرجال فى المعيشة ، وإذا جاء الحيض لا تصلى ولا تصوم ولكنهن كاملات فى العاطفة والحنو » .

كلام يحتاج إلى رد علمى ، لأن العاطفة والحنان جزء من العقل ، العاطفة ليست شيئا خارج العقل ، وليس هناك فاصل بين التفكير والشعور ، فإن عجزت المرأة عن التفكير عجزت أيضًا عن الشعور ، وبلادنا فى حاجة إلى رجال ونساء يتمتعون بالعقل السليم والعاطفة السليمة والجسم السليم . كيف نتصور مجتمعًا يعيش نصفه من النساء ناقصات العقل ؟ ! ثم مَنْ قال إن الدين مجرد الصلاة والصوم ، فإذا جاء الحيض للمرأة ولم تصلِّ ولم تصُمْ تصبح ناقصة الدين ؟ ! ولماذا يقتصر الحنان على المرأة فقط دون الرجل ؟ !

إن الدين أكبر من مجرد طقوس موروثة كالصلاة والصيام . الدين هو السعى الدائم نحو العدل والحرية والحب والإخلاص فى العمل وتحمل المسئولية ومطالب المعيشة الاقتصادية وغير الاقتصادية . داخل البيت وخارجه لكل من الرجل والمرأة .

إن المرأة المخلصة فى عملها داخل البيت وخارجه كالرجل المخلص لعمله داخل البيت وخارجه ، كلاهما يعرف الدين حق المعرفة ، وهما شريكان فى بناء أسرة ومجتمع سليم .

إن الرجل الذى يخون زوجته ويشرد أطفاله بالطلاق أو تعدد الزوجات هو رجل « ناقص الدين » « وناقص العقل » أيضًا ، لأن الدين الصحيح يقود إلى العقل الصحيح ، وهذا يقود إلى الإخلاص والوفاء وتحمل المسئولية فى الحب والعمل على حد سواء .

إن الكرامة الصحيحة للمرأة مثل الكرامة الصحيحة للرجل تنبع من تحمل المسئولية فى الحياة والإخلاص فى العمل وحماية البنات والأولاد من العمليات الجراحية التى تُبْتَر فيها أعضاؤهم تحت اسم الأخلاق الصحيحة .

الأخلاق الصحيحة تنبع من التربية الصحيحة للأطفال فى البيوت والمدارس بحيث يتعلم الطفل كيف يربط بين الحرية والمسئولية وهو مكتمل الجسد والعقل .

المفهوم الصحيح للأخلاق والكرامة

إن أول مبادئ الأخلاق والكرامة الإنسانية هو العدل والحرية والمسئولية ، تسرى هذه المبادئ على جميع البشر بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو العقيدة أو الطبقية .

إلا أن المجتمعات التى نعيش فيها اليوم لا تزال تخضع لمبادئ أخلاقية تختلف حسب كون الإنسان ذكرًا أو أنثى ، وحسب كونه حاكمًا أو محكومًا ، أو ينتمى إلى الطبقة الحاكمة الثرية أو الطبقات الفقيرة الكادحة .

لقد شاركت معنا فى المظاهرة العالمية ضد قتل الأطفال بالحصار الاقتصادى نساء أمريكيات وأوروبيات وآسيويات وإفريقيات غير مختتنات ، وكانت الواحدة منهن تمشى فى شوارع نيويورك مرفوعة الرأس موفورة الكرامة ، تنادى بإنهاء الظلم الواقع على الشعوب البريئة خاصة الأطفال ، وفى لقائنا مع المسئولين بالأمم المتحدة تكلمت جميع النساء فى الوفد العالمى بصوت قوى مملوء بالكرامة والشجاعة وتساوت فى ذلك النساء المختتنات وغير المختتنات !

واحدة من هؤلاء امرأة أمريكية قبض عليها البوليس أثناء المظاهرة وهى تنادى بإنقاذ أطفال العراق وليبيا وكوبا من الحصار ، رأيتها وهى واقفة بين العساكر مرفوعة الرأس موفورة الكرامة ، وضعوا الحديد

فى يديها وأخذوها داخل العربة البوليسية ، إنها امرأة غير مختتنة ومع ذلك فهى تشعر بمسئولية وتسعى لإنهاء الظلم فى النظام العالمى الجديد ، لم تقل هذه المرأة الأمريكية كرامة وأخلاقا عن زميلاتها المصريات المختتنات ، فقد قبض البوليس الأمريكى أيضًا على امرأة مصرية شاركت فى تنظيم المظاهرة وكانت تتقدم الوفود التى تمشى فى شوارع نيويورك تنادى باعتبارالحصار جريمة إنسانية قبل أن تكون جريمة سياسية واقتصادية ، كنت واقفة إلى جوارها حين وضع العساكر الأمريكيون الحديد فى يديها وأدخلوها السيارة البوكس البوليسية . كانت مرفوعة الرأس والكرامة مثل زميلتها الأمريكية .

« يجب أن يتحمل الأمين العام للأمم المتحدة مسئوليته لحماية الأطفال من الموت تحت الحصار ، إن موافقة الأمم المتحدة على هذا الحصار هو خرق لميثاق الأمم المتحدة ، إن لم يستطع الأمين العام تحمل هذه المسئولية فيجب عليه الاستقالة فورا » .

نطقت هذه العبارة بكل كرامة وشجاعة جميع النساء فى الوفد بصرف النظر عن كونهن مختتنات أو غير مختتنات ، فما علاقة الختان بكرامة المرأة كما يدعى بعض الدعاة الدينيين فى بلادنا ؟ !

لابد من فض هذا الاشتباك بين « بظر » المرأة ومفهوم الأخلاق أو الكرامة .

وكيف يُصبح للمرأة كرامة ؟

الكرامة صفة يكتسبها الإنسان (الذكر والأنثى) منذ الطفولة ، حين تتعلم البنت – والولد – كيف تثق فى نفسها ، وكيف تحترم عقلها وجسمها ، كيف تنمى إرادتها ، كيف تكون حرة ومسئولة فى آن واحد .

كيف لا تكون عالة على أحد ، كيف تكون مستقلة اقتصاديًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا عن الآخرين .

هذه التربية منذ الطفولة هى السلاح الذى يحمى الفتاة من العبث واللامسئولية والسطحية والحياة عالة على الرجل .

أما الختان أو قطع بظر المرأة فهو لا يفعل شيئًا على الإطلاق إلا المضاعفات الصحية الخطيرة التى سبق لى الحديث عنها والكتابة فيها منذ ثلاثين عامًا . (راجعوا كتاب المرأة والجنس) .

فى مجتمعنا المصرى نساء مختتنات يشتغلن بالبغاء الواضح أو المقنع ، ويتاجرن بالفنون الرخيصة التى تسلب المرأة كرامتها وتحولها من إنسان كامل إلى جسد يُعرى فى الإعلانات وفوق الشاشات .

إن الختان يسبب للمرأة عاهة مستديمة قد تتحول أحيانًا إلى رغبة فى الانتقام من المجتمع كله .

لو نظر رجل فى عين إحدى المومسات حين يمارس معها الجنس ، لأدرك أنها تكن له المقت والكراهية والرغبة فى الانتقام .

بل لو نظر مثل هذا الرجل نفسه فى عين زوجته المختتنة حين يمارس معها الجنس ، فلربما رأى النظرة نفسها !

ذلك أن المرأة المختتنة تكره الجنس لأنه يسبب لها الألم وليس اللذة ، فقد حرمت من هذه اللذة منذ حرمانها من البظر ، ومنذ تأثرت بالقيم السائدة النابعة من مقولة « تلدين فى الأسى والألم ويكون اشتياقك لزوجك وهو يسود عليك » .

أصبحت المرأة تعيش الألم تحت سيادة الرجل ، لهذا فقدت الكثيرات كرامتهن ويعشن عالة على أزواجهن ، وإن تكسَّبت المرأة من عملها فهى تخفى أموالها تحت البلاطة أو تودعها فى البنك حتى لا يعثر عليها زوجها .

وانقلبت المقاييس الأخلاقية ، وانقلب مفهوم كرامة المرأة وكرامة الرجل أيضًا .

ارتبطت كرامة الرجل أو « الرجولة » بقدرته على الإنفاق على زوجته . وارتبطت كرامة المرأة بعجزها عن الإنفاق عن نفسها ، ومن هنا الازدواجية الأخلاقية التى أدت إلى تدهور الأخلاق .

حركة إيجابيـة وصحيـة

أصبحت كلمة « الختان » اليوم من الكلمات الجارية على كل لسان حتى ألسنة الفقهاء ومشايخ الأزهر ومفتى الديار وغيرهم ، وهذا شىء صحى وإيجابى .

أذكر منذ ثلاثين عامًا حين صدر كتابى « المرأة والجنس » وفيه فصل كامل عن الختان أن اهتز المجتمع المصرى كأنما خدشتُ حياءه ، واضطر وزير الصحة إلى إبعادى عن منصبى فى الوزارة ، وإغلاق مجلة الصحة التى كنت رئيسة لتحريرها ، وإغلاق جمعية الثقافة الصحية التى أنشأتها ، وكانت كلمة « ختان الأنثى » محظورة ، وكلمة « البظر » من الكلمات النابية .

أما اليوم فقد تغير الوضع وبدأت هذه الكلمات تجرى على كل لسان . حين عدت إلى مصر بعد المظاهرة العالمية ضد الحصار ، سألنى سائق التاكسى : أنا مش عارف يا ترى أطاهر بنتى والا لأ ، ناس يقولوا الطهارة كويسة وناس يقولوا لأ ! مش عارف أنا محتار ؟ .

هذه الحيرة إيجابية وصحية ، لأن هذا السائق منذ ثلاثين عاما كان يطاهر ابنته دون حيرة ودون سؤال (الطهارة تعنى الختان باللغة العامية) .

أصبح الجميع يتساءلون اليوم عن عملية الختان للإناث ، هل وزير

الصحة الذى منع العملية على صواب ، أم ذلك الشيخ الذى يقول : إنها كرامة للمرأة ولابد من إجرائها .

لا شك أن وزارة الصحة هى المسئولة عن صحة النساء فى بلادنا ولذلك علينا أن نؤيدها ونساندها فى قرارها ، وأن تنهض عضوة من مجلس الشعب فتقدم مشروع قانون بإنهاء عمليات الختان فى مصر ، إن عندنا عضوات برلمان قادرات على عمل ذلك ، فلماذا لا تبادر واحدة منهن كما بادرت النائبة الأمريكية « باتريشيا شرودور » وقدمت مشروعها إلى الكونجرس الأمريكى ونجحت فى استصدار قانون يمنع ختان الإناث فى الولايات المتحدة الأمريكية ؟ .

إنه عاهة وليس هويّة

يفقد الإنسان كرامته حين يعجز عن الإنفاق على نفسه ، يسرى هذا المبدأ على « الفرد » الرجل أو المرأة ، ويسرى على « مجموع الأفراد » أى المجتمع أو الدولة .

والكرامة جزء من شخصية الإنسان أو ما يسمى الهوية .

حين يصبح الإنسان عاجزًا اقتصاديًّا فإنه يعيش عالة على الآخرين ، يقدمون له ما يسمى صدقة أو مساعدة أو معونة .

أصبحت كلمة « معونة » فى عصرنا هذا جارية على كل لسان ، تقرؤها كل يوم فى الصحف ، ندرك أن بلادنا تتلقى معونة أمريكية ، حقيقة تنال من كرامتنا كدولة ومجتمع وأفراد رجال ونساء .

هذه المعونة (كأى معونة آخرى) مهددة بالانقطاع لأسباب متعددة سياسية وغير سياسية ، وهى محكومة بشرط أساسى هو القدرة أو الرغبة فى إعطائها من الطرف الذى يدفع ، ولا أحد يمكن أن يفرض على أحد أن يقدم له معونة .

قرأنا فى الصحف أن المعونة الأمريكية لبلادنا مهددة بالانقطاع ، أن هناك ضغوطًا لقطع المعونة وضغوطًا أخرى لعدم قطع المعونة ، كل

يوم نقرأ عن أخبار المعونة كأنما حياتنا أصبحت معلقة بهذه المعونة ، ألا ينال ذلك من كرامتنا ؟ ! ألا نشعر بالإهانة كل يوم ؟ ! وأى إهانة !

وقد نفهم العلاقة بين إسرائيل والمعونة الأمريكية ، نعرف أن أمريكا تساند إسرائيل على طول الخط ، لذلك لا يمكن أن تساند أمريكا أى دولة أو أى مجموعة أو أى فرد يعادى إسرائيل ، أو لا يستسلم لشروطها .

ومن المفروض أن نبتهج حين تنقطع المعونة الأمريكية عنا ، وأن نقيم احتفالاً باستردادنا لكرامتنا وبقدرتنا على إعالة أنفسنا على الأقل ! لماذا لا نحتفل ؟ !

ومن المعروف أننا كشعب مصرى (رجالا ونساء) لا نستفيد من هذه المعونة بقدر ما يستفيد منها الآخرون داخل أمريكا ذاتها ، وقلة قليلة من أصحاب الملايين أو البلايين فى بلادنا ، لماذا إذن نسعى إلى هذه المعونة ؟ ! هل أصبحنا محكومين بحفنة من البليارديرات ؟ ! ألا نرى بأعيننا الهوة المتزايدة بين الفقراء المعدمين وبين الأثرياء المتخمين ؟ !

العجيب أيضا ما قرأته فى الصحف مؤخرا ، أن المعونة الأمريكية لمصر مهددة بالانقطاع إن لم يصدر قانون يمنع ختان الإناث .

ما علاقة هذا بذاك ؟ هل يؤلم أمريكا ختان المرأة فى بلادنا ؟ ربما نصدق ذلك إذا تألمت أمريكا لعمليات القتل المستمرة حتى اليوم

لنساء وأطفال أبرياء لا ذنب لهم إلا أنهم ولدوا فى بلاد لا ترضى عنها أمريكا .

مثلا يموت كل يوم من شعب العراق ٤٥٠ طفلاً حتى اليوم ، بسبب الحصار الاقتصادى الأمريكى للعراق ، وفى حرب الخليج مات نصف مليون امرأة وطفل ورجل من الشعب العراقى فقط ، خلاف الآخرين من جنسيات عربية أخرى .

أما المذابح التى تعرض لها الشعب الفلسطينى فهى معروفة . يحدث ذلك على مشهد من أمريكا (بل بسببها وبسبب مساندتها المطلقة لإسرائيل) دون أن تتألم أو يهتز لها جفن .

كيف إذن تتألم كل هذا الألم بسبب ختان البنات فى مصر ؟ شىء غريب ليس له إلا تفسير واحد هو أن أمريكا تريد ضرب الحركة النسائية المصرية المتقدمة لصالح الحركات الأخرى المتخلفة ، والتى تساندها أمريكا سرًّا أو علنًا .

ومن المعروف سياسيًّا أن الضربات الموجهة للخصوم تتغير وتتبدل وتتناقض أحيانًا وأغلبها غير مباشر . من المعروف أن أمريكا شجعت التيارات الدينية الإرهابية فى أفغانستان لضرب خصومها (الاتحاد السوفياتى) وشجعت إسرائيل منظمة حماس لضرب منظمة التحرير الفلسطينية ، ثم بدأت تضرب حليفتها بعد أن انتهت من تصفية خصومها السابقين ، وهكذا تدور السياسة فى عالمنا المعاصر تحكمها المصالح وليس المبادئ .

وتتغير اللغة السياسية وتتناقض الكلمات والألفاظ مع الأفعال لإخفاء الأهداف ، وقد تمرست البلاد الأوربية والأمريكية فى هذا الخداع السياسى واللغوى بشعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، مما يطلقون عليه اسم « العالم الثالث » .

لقد أصبحت الحرب اللغوية والإعلامية جزءًا لا يتجزأ من الحرب الاقتصادية والعسكرية التى يشنها العالم الأول على العالم الثالث ، وهى حرب غير متكافئة بسبب تقدم العالم الأول فى تكنولوجيا الخداع الإعلامى ، بحيث يصبح للكلمة الواحدة عدة معان ، وللتصريح السياسى وجهان متناقضان ، ظاهره الديموقراطية واحترام حقوق الإنسان والمرأة ، وباطنه ضرب الديمقراطية وضرب حقوق النساء والرجال والأطفال .

بعد أن نشرت الصحف النبأ بأن أمريكا تهدد بقطع المعونة عن مصر إن لم يصدر قانون يمنع ختان الإناث انقلبت بعض المجموعات والأفراد على عقبيها ، وغيرّت موقفها من ختان الإناث لإثبات الوطنية والقومية والثورية ضد أمريكا وإسرائيل .

هكذا يتم التضحية بحقوق البنات والأطفال الإناث فى الساحة السياسية ، وهى الساحة التى ينتصر فيها القوى على الضعيف (دوليا ومحليًّا وعائليا) .

وفى الساحة الثقافية والإعلامية أيضا ينتصر الأقوياء الذين يملكون السلطة الدولية أو المحلية ، لهذا ارتفع صوت بعض الذكور من القيادات (ذوى الصوت العالى) فى مجال الدين أو الأخلاق أو الطب أو السياسة أو الاقتصاد أو الثقافة أو اللغة ، ارتفعت أصواتهم للدفاع عن ختان النساء ، قرأت لأحدهم يقول : إن « ختان الإناث هو جزء من هويتنا الثقافية فى مواجهة الغرب الذى يسعى إلى الهيمنة علينا ، وأحد وسائل الهيمنة هو تحطيم القيم التى درجنا عليها ، والهوية الأصلية لنا ، والخصوصية الثقافية التى تميزنا عن الآخرين » .

هكذا وجدت الحركة النسائية المصرية المتقدمة نفسها فى مأزق ، إن حربها ضد ختان النساء قد يبدو كأنما هو ضد المصالح الوطنية والقومية للبلاد ، كأنما هو ضد الهوية والنسق القيمى الاجتماعى والأخلاقى ، كأنما هو ضد تراثنا الأصيل وثقافتنا المصرية والعربية .

لهذا انخفضت أصوات النساء ، هى فى الأصل منخفضة وهامشية فى ساحة الصراع السياسى الطبقى الأبوى ، وبعض النساء انقطعت أصواتهن تمامًا ، وبعضهن بدأن حملة ضد ما يسمى الحركة النسوية « الفيمنست » التى تنشغل بأمور تافهة مثل الختان عن القضايا الكبرى مثل المعونة الأمريكية ، أو الصراع الإسرائيلى العربى ، أو السوق الشرق أوسطية إلخ .

كيف يمكن فى هذا الصراع السياسى أن يحدث ما نسميه « رفع الوعى الثقافى العام بقضية ختان الإناث ؟ »

إن ختان الإناث ليس قضية جنسية تخص النساء فقط ، ولكنه قضية سياسية اقتصادية ثقافية وجنسية أيضا ، وهى تخص الرجال والنساء والأطفال ، إنها أحد مشكلات التخلف فى المجتمع وهى تربطة بالمشاكل الأخرى ومنها الأمية وتدهور أساليب التربية والتعليم والإعلام ، وتزايد الفقر والبطالة والمخدرات ، وكلها مشاكل مترابطة ناتجة عن المشاكل السياسية والاقتصادية الدولية والمحلية .

لا يمكن فهم مشكلة المرأة ومنها مشكلة الختان دون فهم ما يدور فى العالم من سياسات ينعكس أثرها علينا كدول أو أفراد من الرجال أو النساء أو الأطفال .

إن الوعى الحقيقى بأى مشكلة اجتماعية يتطلب دراستها من كافة النواحى ، ومنها أيضا الناحية التاريخية ، كيف نشأت هذه المشكلة فى التاريخ ولماذا ؟

وهناك محاولة لربط قضايا تخلف النساء ومنها الختان بالدين الإسلامى ، بسبب تزايد العداء العالمى ضد العرب لصالح إسرائيل .

هناك حركة سياسية عالمية ضدنا نحن العرب بسبب القوة المتصاعدة لدولة إسرائيل والمساندة الأمريكية والأوربية لها منذ نشوئها عام ١٩٤٨ .

هناك محاولة سياسية عالمية لإقناع الناس أن العرب ليسوا إلا شعوبًا متخلفة همجية يمارسون الختان والإخصاء والإرهاب وضرب الزوجات ، وأن دولة إسرائيل متحضرة وديموقراطية ليس فيها ختان ولا إرهاب ولا ضرب زوجات بل إن المرأة هناك محررة ومساوية للرجل وهذا كله غير صحيح ، ويحتاج إلى مراجعة علمية وتاريخية .

مثلا فى اليهودية يقول الرجل فى صلاته : « أحمدك يارب لأنك لم تخلقنى أنثى » . مع ذلك تعلن زعيمات الحركة النسائية اليهودية الأمريكية أن المرأة فى البلاد العربية مقهورة بسبب الإسلام . إن الرجل المسلم لا يشكر الله فى صلاته لأنه لم يخلقه امرأة . فكيف إذن ؟ ولماذا إذن تسعى هؤلاء النساء (اللائى يطلقن على أنفسهم ألقابًا ثورية عُظمى) إلى إلصاق تهمة قهر المرأة بالإسلام ؟

وفى كتاب التوراة هناك نص واضح عن ختان الذكور ، يأمر رب اليهود شعبه المختار بإجراء عمليات الختان للأُطفال الذكور ، فلماذا تسعى هؤلاء النساء الثوريات اللائى يطلقن على أنفسهن لقب « فيمنيست يهودية » أو « فيمينيست مسيحية » إلى الادعاء بأن الإسلام هو الذى بدأ فكرة الختان ، للذكور والإناث على حد سواء .

تنتهز هؤلاء النساء فرصة عدم دراية الناس بالتاريخ الحقيقى للأديان أو النصوص فى الكتب الدينية لربط القهر الواقع على النساء بالدين الإسلامى وليس الأديان الأخرى .

اشتدت الحركة السياسية المعادية للعرب بعد الثورة المصرية عام ١٩٥٢ وتصاعدت الحركات الشعبية العربية ضد الإرهاب الإسرائيلى فى المنطقة ، وتضاعف العداء ضد العرب بعد الهزيمة المفجعة عام ١٩٦٧ ، وبعد الهزيمة الأخرى المفجعة عام ١٩٩١ (حرب الخليج) .

« العجل وقع هاتو السكين » هذا المبدأ هو الأساس الأول للسياسة العالمية والمحلية منذ نشوء النظام العبودى فى التاريخ ، لا يرقى إليه إلا مبدأ « فرّق تسد » ، لهذا دأبت القوى الحاكمة (فى أى مكان وزمان) على تفتيت قوى المحكومين ومقاومة أى حركة تسعى إلى وحدتهم وتضامنهم سواء كانوا رجالاً أو نساء .

لهذا السبب ضُربت جميع المحاولات للوحدة العربية أو التضامن العربى أو تضامن المرأة العربية .

هناك محاولة أيضا لادعاء أن العرب والإسلام شىء واحد ، فى حين أن هناك الملايين من المسلمين فى العالم ليسوا عربًا ولا علاقة لهم بالعرب ، كما أن هناك الملايين من العرب ليسوا مسلمين ولهم عقائد دينية مختلفة .

إلا أن هذا الخلط يخدم السياسة العالمية المعادية للعرب المؤيدة لإسرائيل ، هناك محاولة لتصوير الصراع العربى الإسرائيلى كأنما هو صراع دينى أو ثقافى أو حضارى وليس صراعًا حول الأرض والمال والتجارة والسوق ومياه الأنهار وغيرها من الأمور المادية .

إن تحويل الصراع من مادى إلى روحانى هو المبدأ الأول للسياسة العالمية فى العهود المختلفة السابقة ، حتى الرأسمالية الحديثة وما بعد الحديثة .

أصبحت الهيئات الدولية الممولة للمؤتمرات ترفض تمويل أى مؤتمر (رجالى أو نسائى) لا يدور حول الصراع بين الثقافات أو الأديان .

خلال العشرين عامًا الماضية أصبح الحوار الفكرى العالمى والعربى يدور حول الأديان ، أصبح التنافس الأكاديمى بين المفكرين والكتاب (من الرجال والنساء) هو تنافس بين فرق دينية ، يحاول كل فريق أن يثبت أن دينه هو الحقيقة ، وتراثه هو الأمثل ، وقيمه الأصلية هى القيم الأعلى ، ولغته هى اللغة المقدسة .

تحوَّل الحوار الفكرى بين الأساتذة والأستاذات (من جميع الأطراف المتصارعة) إلى حوار حول الكلمات واللغة والقيم والتراث والحضارة والثقافة ... إلخ .

وأنا لا أقلل من قيمة هذا الحوار ، إلا أنه قد يؤدى إلى نتائج سلبية إذا ما انفصل عن السياسة والاقتصاد والمياه والتجارة والسوق ، بل إنه قد يلعب دورًا فى تحويل المعارك الرئيسية إلى معارك سطحية كلامية تهتم بالألفاظ أو الأزياء أو شكل غطاء الرأس أكثر من أى شىء آخر .

سأضرب مثلاً واحدًا على ذلك من حياتنا . لى صديقة أفنت حياتها فى العمل فى المستشفى ، كانت حكيمة فى قصر العينى منذ عام

١٩٥٦ حين كنت أنا طبيبة امتياز ، أربعون عامًا من العمل المتواصل ليل نهار لتربى أولادها الخمسة الذكور (بعد أن طلقها زوجها ، وهاجر إلى بلد أخرى لا تعرف أين هو ولم يشاركها في الإنفاق على أولاده) ، هذه السيدة المحترمة اشتغلت خارج بيتها لتعلّم أولادها فى أعلى المعاهد ، أكبرهم مهندس ناجح وأصغرهم طبيب ناجح والباقى نجحوا في جميع المهن والأعمال ، فماذا كانت نتيجة جهودها ؟ ! منذ أيام رأيت مشهدًا عجيبًا بعينى رأسى ، رفض الابن الأكبر المهندس الناجح أن يصافح أمه حين زارته فى بيته . لماذا ؟ لأنها لا ترتدى الحجاب ! سمعته يقول لها : « لما تلبسيه أسلم عليكى لأن التسليم على امرأة غير محجبة حرام » .

ورأيت هذه الأم تمسح دموعها وتقول لى بحزن : بعد كل اللى عملته ابنى ما يسلمش علىّ ؟ « العمل عبادة » وأنا اشتغلت طول حياتى ما خدتش يوم إجازة عشان أربى أولادى يكون ده جزائى » .

فى أحد المؤتمرات بالقاهرة هذا العام حول صراع الثقافات وقفت استاذة مصرية وتكلمت ضد ختان البنات وأثبتت أنه عادة قديمة ضارة بالصحة إلا أن بعض الأساتذة المصريين (ومنهم أساتذة فى الجامعة كانوا يتشدقون بالاشتراكية والعدل فى الستينات) عارضوا هذه الأستاذة واتهموها بالتغريب (يعنى الانحياز إلى الثقافة الغربية) وراحوا يتنافسون فى إثبات روحانية القيم فى تراثنا العظيم لمواجهة الغزو الثقافى الغربى الذى يقوم على الماديات ويحاول تحطيم قيمنا التى درجنا عليها ،

والتى تكوِّن هويتنا ، ومنها الختان والحجاب وطاعة المرأة لزوجها ، وتفرغها للخدمة فى البيت ومنح الحنان والحب داخل الأسرة .

أحد هؤلاء الأساتذة المعارض لمادية الغرب كان يعلِّق حول أُذنيه سماعات مادية غربية ، ويركب سيارة أمريكية ، ويشتغل فى مكتبه وبيته على كومبيوتر أجنبى ، إنه يستمتع فى حياته العامة والخاصة بجميع المنتجات الغربية المادية ، لكنه يلعن هذه الحضارة المادية فى اللحظة نفسها دون أن يهتز له جفن ، أغرب من ذلك أن زوجته الأستاذة زميلته فى الجامعة تدرس اللغة الإنجليزية ، وابنته تدرس فى الجامعة الأمريكية ولا تجيد اللغة العربية ، إلا أنه وقف وراح يمدح التعليم فى كتاتيب القرية التى تعلم اللغة العربية الصحيحة ، فاللغة العربية والقيم الإسلامية مثل الحجاب والختان وتفرغ المرأة لبيتها هى الأسلحة التى يجب أن نحارب بها الغزو الثقافى المادى الغربى للروحانية التى نتميز بها وتشكل ما أسماه « خصوصيتنا الثقافية » .

هل بتر عضو من أعضاء الإنسان جزء من هوية هذا الإنسان ؟ هذا السؤال له إجابة واحدة هى : لا يمكن ! لا يمكن أن نستأصل من الإنسان جزءًا من جسمه (وإن كان صغيرًا) تحت اسم الهوية أو القيم أو التراث .. إلخ .

وفى تراثنا المصرى لا يوجد دليل واحد على أن « الختان »كان جزءًا من هويتنا ، وفى تراثنا الإسلامى والقبطى لا يوجد دليل واحد على ترابط الهوية بالختان .

فقط فى التوراة والدين اليهودى يعتبر ختان الذكور جزءًا من هوية الرجل اليهودى ، فالرجل لا يكون يهوديًا (فى نظر رب اليهود) إذا لم يكن مختتنا ، مع ذلك لا يتحدث يهود العالم ولا يهود إسرائيل عن تراثهم هذا . إن أغلب اليهود لا يختتنون ذكورهم وقد حذفوا هذه الآية من التوراة كما حذفوا أيضا مبدأ تحجيب النساء ، إذ تقوم الفلسفة اليهودية على تغطية رأس المرأة ، لماذا ؟ لأن المراة فى التراث اليهودى جسد بلا رأس ، وحين تتزوج يصبح زوجها هو رأسها ، أما المرأة غير المتزوجة فهى تظل بلا رأس ، ومن هنا نشأت فكرة دونية المرأة ونقصان عقلها ، ونشأت معها فكرة تغطية رأسها بالحجاب (أو البروكة) ، وتقوم التغطية على أساس أن المرأة لابد أن تخجل من كونها جسد بلا رأس ، لذلك يجب أن تتخفى بسبب هذا العار ، وأهم ما تخفيه هو رأسها .

« كيف يُفرض على المرأة اليهودية إخفاء رأسها مع أنه غير موجود ؟ » .

لكن هذا تناقض واحد من تناقضات كثيرة تعرضت لها النساء اليهوديات القديمات ، أما النساء اليهوديات الحديثات ، فقد حذفن كل هذا من تراثهن ، وقدمن للعالم تفسيرًا جديدًا للفلسفة والدين اليهودى يقوم على احترام المرأة وأن لها رأس وعقل كالرجل تمامًا ، وأن الحجاب أو الختان أو قهر النساء لا علاقة له بالدين اليهودى أو المسيحى بل بالدين الإسلامى فقط . ويضربن مثلا على ذلك ،

قائلات : « إذا سرت فى أى شارع شرقًا أو غربًا ورأيت امرأة تغطى رأسها أو شعرها بالحجاب فهى امرأة مسلمة ولا يمكن أن تكون يهودية أو مسيحية .

هناك نساء أمريكيات مناصرات لدولة إسرائيل ، يحاولن إلصاق تهمة ختان البنات بالإسلام فقط دون الأديان الأخرى ،على حين يؤكد الحاضر والماضى على أن ختان البنات لا علاقة له بالإسلام ولا بأى دين آخر ، وإنما هو عادة قديمة منذ نشوء العبودية .

لماذا إذن نُسىء إلى أنفسنا وهويتنا وثقافتنا وتراثنا ونعتبر الختان جزءًا من هذه الهوية وعلامة الأُصالة فى مواجهة الحداثة والتغريب ؟ !

إن كثيرًا من القوى السياسية والاقتصادية العالمية والمحلية تلعب دورًا فى تكريس قيم وعادات قديمة ضارة بنا (نساء ورجال) ومنها ختان الإناث .

إن عقاب الأم التى تختن طفلتها لا يمكن أن يتساوى مع عقاب الأب (الذى يملك القرار فى معظم الأحيان) ، ولا يمكن أن يتساوى عقاب الداية الجاهلة مع عقاب الطبيب ، وهذا لا يمكن أن يتساوى مع عقاب مسئول كبير فى مجال الصحة أو مسئول كبير فى مجال الإعلام الثقافى أو الدينى .

المفروض أن المسئولية تزداد بازدياد المنصب الذى يشغله الإنسان ، والقرارات التى يتخذها وتأثيرها على كثير من الناس ، كلما زاد العدد زادت المسئولية .

إن صاحب القرار الذى يمتلك السلطة والمعرفة أكثر مسئولية من غيره ، إلا أننا نعاقب الأضعف والأجهل ، وهى المرأة أو الأم المسكينة التى تسعى إلى ختان بناتها إرضاء لزوجها والمجتمع ، فلسفة عقاب الضحية وإطلاق سراح الجانى .

نحن فى حاجة إلى تجريم ختان الإناث بواسطة القانون والتعليم والإعلام والتربية جميعًا دون استثناء ، لا يكفى القانون وحده ولا يكفى التعليم والتربية وحدهما . لا يكفى أن يتصدى لهذا الأمر وزارة الصحة فقط بل هذا واجب نقابة الأطباء أيضًا ، ولابد من تطوير قسم الأطباء وميثاق شرف المهنة بحيث يشمل هذه العبارة « أقسم ألا أقطع أى جزء من جسم الإنسان ذكرًا أو أنثى طالما هذا الجزء سليم لا يعانى مرضًا من الأمراض » .

ولابد من تطبيق قانون الجنايات الذى يعاقب كل من يُحدث عاهة مستديمة لأى أحد ، واعتبار ختان الإناث من العاهات المستديمة وليس هوية أصيلة .

الفهرس

العدد القادم

في بحور العلم (الجزء الثالث)

(دفاع عن العلم)

دكتور أحمد مستجير

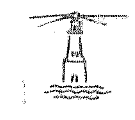
رقم الإيداع	١٩٩٧/١١١١٣	
الترقيم الدولى	977-02-5468-1	ISBN

١/٩٧/٤٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

فى هذا الكتاب تواجهنا أفكار ذات مذاق مختلف تثير الجدل ، وتصدمنا أحيانًا فتثير السخط ، قد يوافق عليها البعض ، وقد يرفضها البعض الآخر ، ولكنها فى النهاية تستفز عقولنا ، فتثير قضايا هامة تحرك بحيرات التساؤل الراكدة .. وتحرضنا على إعادة النظر فيما إعتبرناه واقعًا .

إنه التفاعل الذى يميز نوال السعداوى فهى لا تسعى إلى حلول مؤقتة أو شن حملات ، وإنما تريد أن تخلق منهجًا جديدًا فى التفكير .



دار المعارف

٤٠٦٨١٢/٠١

